

روايات عبر



إِثْلِيَّاتٌ بَيْتٌ

خُذْ احْبَبْ وَارْهَبْ!

وردة قايين

شبكة إيلان الثقافية



١ - الابن والأب

قالت جوزفين نيويل لابنتها:
«ولكن يا حبيبتي، انه يكبرك كثيراً بل هو في الحقيقة أكبر مني»
فردت عليها ماريثا وهي تبسم وتغلق حقيبة سفرها:
«استمرري يا أماء، وأكلمي كلامك وقولي ان عمه يقارب أن يكون زوجاً لك»
ثم لفت ذراعيها حول عنق أمها وقبلتها على خدها الخالي من التجاعيد وهي تقول:
«أرجو ان تفهمي أن لا شيء هناك بيتنا على الإطلاق»
ردت عليها جوزفين قائلة وهي تنظف جيبها قلقاً:
«أذن بماذا تفسرين هذه الدعوة لقضاء اجازة الصيف معاً؟»
ولم تتمكن ماريثا أيضاً من الاجابة على هذا السؤال. فقد كانت متدهشة
كوالدها تماماً، فهزت كتفها وقالت:
«لأنتي أعمل في القسم الذي يرأسه»
«ولكنك لا بد أن تعترفي بأنك عضو صغير بالقسم. كما أن مجرد مساعدة في العمل
لا يعد مركزاً مهماً في السلم الوظيفي للجامعة»
فتنهدت ماريثا وقالت:
«اعترفت من زمان بذكائتي المحدود»
ولكن جوزفين ردت تقول:
«يا حبيبتي الذنب ليس ذنبك لتترك المدرسة قبل إتمام امتحاناتك فلولاً وفاة

والدك...»

«لكن أصبحت في القصة يا أمي العزيزة... سمعت هذا الكلام من قبل. وأعدك بأن أنتحق بالدراسات الليلية في الفصل الدراسي المقبل واجتهد لأكمل ما بدأته من دراستي».

فقالت الأم وهي تقطب ثانية:

«ماريتا... بلغت الرابعة والعشرين ولن يمضي وقت طويل قبل أن...»

ضحكت ماريتا وأتمت الكلام تقول:

«أتزوج؟ ليس هناك من أفكر فيه الآن. جيمس لطيف ومستقيم وصالح. لكنه لا يحرك عاطفتي».

«أذن يبقى البروفيسور تيودور أليس كذلك؟ فلا تقولي انه دعالك الى منزله لمساعدته في العمل».

«أنا لست مؤهلة لذلك».

«أذن انه مهم بك لشخصك، أعرف أساليب الرجال يا عزيزتي».

«حتى ولو كان في الثانية والخمسين من عمره».

«وخصوصاً اذا كان في الثانية والخمسين من عمره. انني أبلغ من العمر الثامنة والاربعين، والرجال في هذه السن، ولاسيماً الأرامل مثله، يحتفظون بكل قواهم العقلية وشعورهم وغرائهم».

ضحكت ماريتا واحتضنت والدتها وقالت:

«سوف تصفين لي حياة الطيور والنحل كذلك».

ثم سمعتا جرس الباب يبدق دقتين منتظمتين ويهداها ساد سكون... فهست جوزفين تقول وهي تنظر الى السلم:

«لقد وصل».

قالت ماريتا:

«اذهي للقائه فانا نسيت أن أحضع بودرة التلك في الحقيبة».

وأخذت تغلق حقيبتها ثانية عندما سمعت والدتها وصوت البروفيسور يصلان اليها من السلم. كان صوت والدتها عالي التبرات يرحب بقدم الضيف بخجل...

وتذكرت ماريتا أن والدتها لم تقابل أستاذاً من قبل. أما الصوت الثاني فكان سريعاً ودقيقاً يعكس شخصية البروفيسور ويمرر تفكيره.

وما لاشك فيه أن والدتها كانت منبهة بلقاء هذا الشخص المرموق، وكان نداؤها من الدور الأول وهي تقول: لا تجعلني السيد... الدكتور... البروفيسور تيودور ينتظر. لا يدل على مدى اضطراب والدتها فحسب بل، لدهشة ماريتا كان بمثابة صرخة لطلب المساعدة والنجدة منها.

وكانت والدتها ماريتا تعتبر مضيفة ممتازة في حياة زوجها الذي كان يتبوأ مكاناً مرموقاً في عالم الصناعة، ولم تكن تتأثر بمقابلة الناس ولكن هذه المرة شعرت بأنها تشد عن هذه القاعدة.

ومنذ سنوات مضت بدأت ماريتا تعمل في قسم البروفيسور تيودور وكانت تعد نفسها محظوظة لتعيينها في هذا المركز العلمي بالرغم من كفاءتها المحدودة قليلاً، كما كانت والدتها تسمعها تذكر بكل تبحر واحترام هارفورد تيودور، وتسمع الكثير عن كل أعماله ومنجزاته. لكن ماريتا كانت تعتقد أن والدتها تعجب منه ولا تتصور أنها سوف تقابله في يوم ما.

وأثناء هبوط ماريتا السلم كانت تفكر انه بالرغم من بلوغ تيودور الثانية والخمسين من عمره، لا بد للمرء أن يعجب بشخصه، فهو ذكي لا مع بنظراته اللامعة الشاملة وهو يتلقى المعلومات وينسقها في كمبيوتر ذهنه. ثم تظهر النتائج لتوها، كما انه وسيم يجمع الذكاء والكياسة: طويل القامة - موهوب تدل حركاته السريعة على حيوية زائدة، وتنحنى كتفاه في تقوس خفيف. ويتخلل شعره بعض الشعرات البيضاء، أما لحيته المدببة فهي تناسبه تماماً.

ولما جلست ماريتا في مقعدها في السيارة راحت تراقب مناظر ريف شرق أنغليا تعبر أمامها وتتساءل:

«هل حقاً البروفيسور تيودور مهم بها شخصياً؟ فالوالدات دائماً يتخيلن أشياء لا وجود لها».

بدأ كل شيء في يوم بالمعمل وقت الغداء وماريتا تطل من النافذة، بينما كان جيمس مهتماً بإحدى التجارب العملية حين سأله ماريتا:

«ما اسم ذلك الطير الذي يقف على النجيل يا جيمس؟ اننا لا يمكننا التفرقة بين الطيور».

فسمعت صوتاً يرد عليها قائلاً:

«انه العصفور الأسود أنسة نيويل، واذا دقت النظر قليلاً لعرفت ذلك».

التفتت ماريتا لترى وجه البروفيسور تيودور فقالت:

«أسفة ظننت أنني أخاطب جيمس ولكن هل تفهم في حياة الطيور يا بروفيسور؟»

فرد برقة قائلاً:

«أمارس هواية الاهتمام بالطيور في وقت فراغي لأنها هوايتي وموضع اهتمامي، ولدي منزل كبير في الريف الجا إليه في عطلات نهاية الأسبوع وفي اجازاتي. وبالمثل حديقة واسعة جميلة، ومكان أختبئ فيه فأرى الطيور بينما هي لا تراني».

ومن يومها أصبحت ماريتا مهتمة تدريجياً بهواية البروفيسور تيودور ثم أعارها كتاباً يمكنها أن تتعرف على الأنواع المختلفة من الطيور، وقد حدث مرة أن عاد مبكراً من الغداء فاصطحبها للتنشية في حرم الجامعة حيث كان يعرفها على الطيور الموجودة هناك، ويخبرها عن عاداتها في بناء أوكارها وطرق هجرتها. ثم تبع ذلك الدعوة الى منزله. وقد أدهشتها تلك الدعوة لكنها قبلتها على الفور. اذ قال لها بحماسة:

«سأريك المخبأ الذي أراقب منه الطيور أنسة نيويل. وباشرا في سوف تصبحين مرجعاً مثلي في دراسة الطيور».

وقالت والدتها: «انه يهتم بك لشخصك»، لكنها كانت محبطة في ذلك... وكلها قرب الطريق الى منزله نقص الشعور بالتباعد الذي سببه علو السلم الوظيفي الذي يتبوأه. فقد خلع ثوب العلم والمعرفة وأصبح إنساناً عادياً يتكلم في كل شيء. مثل عملية الشراء من متجر القرية عندما تنسى مشرفة منزله السيدة فيسك، شراء بعض ماكنته في قائمة المشتريات.

ولكن ماريتا لم تتخلص نهائياً من الشعور بالحالة التي تحيط به، فهي

الآن تجلس بجوار الرجل الذي كانت الى وقت قريب تعتبره ينتمي الى عالم آخر غير عالمها. فقد وضع كتاباً اعتبرها معاصروه قمة في مادتها، وأوصى خبراء التعليم باستعمالها كتاباً دراسية.

ان البروفيسور تيودور يعتبر خبيراً عالمياً في فرع هام من فروع مادة تنقية المعادن، ولذلك اختير عن جدارة كمي يكون أستاذاً لمادة تنقية المعادن لسنوات طويلة وفي سن مبكرة نسبياً، كما كانت مؤهلاته عالية.

وكانت ماريتا تفكر وهي تصغي له وهو يتكلم عن منزله ومزاياه انها لا تعرف عنه شيئاً إلا انه أرمل لسنوات طويلة، ولم يشر قط الى ان له أسرة ولذلك استنتجت ان ليس له اولاد.

وانعطفت السيارة في زاوية معينة بالنصف الشمالي من ممر السيارات. وكانت السيارة كبيرة وبراقة زرقاء اللون، لكن المنزل هو الذي أدهش ماريتا لفخامته وحجمه وعراقته، فلا بد أنه بني منذ أكثر من مائتي سنة. وكان مبنياً بالطوب الأحمر، والنباث يتسلق جدرانها ويضفي جمالاً على لونه.

ثم أشار البروفيسور تيودور الى شعار العائلة المعلق فوق نوافذ الدور الثاني وقال:

«هذا الشعار ليس لي بل يخص مالك المنزل الأصلي فقد اشتريت المنزل من أحد ورثته، سيدة توني زوجها وأرادت أن تتزوج ثانية بعدما تتخلص من مسؤولية هذا المنزل الضخم. وقد كنت سعيد الحظ لأنني ورثت عن جدي الثري المال لأشتري مثل هذا المنزل، وأعترف أن هذا المنزل يعتبر وسيلة لارضاء النفس».

ثم نزل من السيارة واستدار ليفتح بابها وأردف يقول:

«يمكنني جعل هوايتي في مراقبة الطيور تقل كل قلبي».

فسأله ماريتا:

«وهل تسافر يومياً الى الجامعة من هنا؟»

ضحك وهو يرى في هذا السؤال سذاجة لطيفة ثم رد يقول:

«لا، لي شقة بجوار الجامعة. ولكنني أعود الى هنا في عطلات آخر الأسبوع».

وانظرت ماريتا حتى أحضر البروفيسور تيودور امتعتها من السيارة.

ثم قال وهو في طريقه الى مدخل المنزل:

«أرجو لك إقامة طيبة هنا معي».

ثم ابتسم وهو يفتح لها الباب الضخم وقال:

«انتي أتطلع الى تدريس تلميذتي المجددة الجديدة مادة العناية بالطيور، وبث روح الحماسة والحب التي أشعر بها نحو هذه الحواية في نفسها».

ولكن ماريئا شعرت ببعض القلق، فربما خذلتها بعدم اهتمامها الاهتمام الكافي الذي ينتظره مقابل كرم دعوتها لها، وأقسمت أن تقرأ كل كتاب يعيره لها.

وجدت البهو واسعاً مهيباً، وسفقه عال، وأرضيته الخشبية تلسع من نظائنها. أما الدرج المفروش فكان على جانب من البهو.

ثم ظهرت سيدة نحيلة طويلة القامة آتية من جناح الخدم تبتسم لماريئا، ولكن تتخلل هذه الابتسامة نظرة دهشة اتسعت معها عيناها. ثم مدت يدها قائلة:

«أنا السيدة فيسك، مشرفة منزل الدكتور تيودور الدكتور هارغورد تيودور...»

ولاحظت ماريئا ان السيدة فيسك، ركزت في النطق على اسم الدكتور الأول، ولكن لم تعر الأمر اهتماماً لا تشغلتها بما حولها من أشياء جديدة.

وحملت السيدة فيسك حقيبة ماريئا قائلة للبروفيسور:

«جهزت حجرة الضيوف كما أمرتني يا بروفيسور تيودور».

فاًوماً برأسه وربت بيده على كتف ماريئا قائلاً:

«موعد العشاء في الساعة، لكن اذا احتجت الى الراحة فيمكن تأجيل مواعده...»

هزت رأسها ضاحكة وهي تقول:

«السفر في سيارتك لمدة ساعة أو ساعتين ليس بالأمر المتعب».

جاراها في الضحك كتقديره لهذا المزاح... ثم قال لها:

«عندما تفرغين من تغيير ملابسك، الحقني بي في غرفة الاستقبال الرئيسية».

تبع ماريئا السيدة فيسك الى السلم، وفي المنحنى نظرت بدون أن

تدري الى تيودور قرأته واقفاً يتابع صعودهما وهو ينظر اليها في تفكير عميق. ففسرت هذه النظرة بأنه يسأل نفسه ان كانت ستمتتع بوجودها في هذا المنزل مع رجل يشكو من الوحدة. ثم راجعت أفكارها قائلة: «نعم مع رجل وحيد» ووجدت غرفة النوم واسعة، أما المدفأة فمزينة بنقوش ورسوم متداخلة. وكان الأثاث ينتمي الى العصور القديمة والصور تعكس تلك العصور، ووسط السفن ثريا من الكريستال المزخرف.

ووجدت السرير عبارة عن أريكة عصرية كأحدث ما تعرضه محلات الأثاث، أما منضدة الزينة والخزان فكلها من الخشب المزخرف برسومات الورود المتداخلة وانعكست هذه الرسومات في الستائر التي كانت تتأيل مع النسيم وتلطف حول نافذتي الغرفة في إطار جميل. وعلى جانبي المدفأة مقعدان اضافيا على المكان جواً يوحي بالشعور بالراحة.

ورأت ماريئا من باب جانبي جزءاً من الحمام فشعرت بسرور عظيم. ولما دخلته اكتشفت انه كان غرفة لارتداء الملابس ملحقه بغرفة النوم في الماضي. ثم حوّل الى حمام خاص ملحق بحجرة الضيافة.

ولما سمعت كلمات البروفيسور وهو يقول لها: «عندما تفرغين من تغيير ملابسك» توقعت أن يكون من عادته إرتداء الملابس الرسمية أثناء العشاء. فأخرجت من حقيبتها تنورة منقوشة بالزهور وبلوزة بيضاء بدون أكمام مصنوعة من الدانتيل.

وكان البهو ساكناً عندما نزلت ماريئا الدرج بهدوء. وعندما وصلت الى نهايته سمعت من بعد أصواتاً كثيرة وداعبت أنفها رائحة الطعام الشهية. فشعرت بالجوع الشديد يلاحقها ويمتزج باضطراب مشاعرها، فارتجفت ولامت نفسها لجوعها لأنها لم تتناول شيئاً منذ وجبة الغداء. ثم عبرت البهو الى باب مفتوح قليلاً وسألت نفسها هل دعاها مضيفها لموافاته في غرفة الطعام أم في غرفة الاستقبال، لم تجده في غرفة الطعام لكنها لم تتراجع، فبالغرفة لم تكن خالية اذ رأت رجلاً يدير ظهره ويطلّ من إحدى النوافذ. له قامة طويلة وشعره البني الفاتح يتموج حتى ياقة قميصه المخطط. كان يضع إحدى يديه في جيب

بنتطولونه ويمسك بكأس بالأخرى. وكانت ماريئا قد دخلت بهدوء فلم يشعر بها، وظنت أنها إذا حبست أنفاسها وتراجعت من الغرفة بدون أن تستدير ربما أمكنها الهرب من الغرفة بدون أن يراها.

ويبدو أنه قد سمع خطواتها فاستدار إليها. ثم ارتسم على وجهه تعبير دهشة شديدة شلت حركة رتيته فلم يتكلم، كما ضاقت عيناه وقطب حاجبيه الكثيفين الداكنين، وكان أنفه مستقيماً وفمه واسعاً وتسم شفتاه بالسخرية. وربما بالمرارة. وشعرت ماريئا أنها ارتكبت ذنباً فأصلحت من وقفته. وتساءلت عمن يكون ذلك الرجل الذي أصابها بذلك الشعور الجارف بالذنب؟ وكان يرتدي سترة رمادية متقنة الصنع تسدل في تناسق على جسمه، وكان رباط عنقه أحمر داكناً يتناسب مع خطوط قميصه.

شعرت أنها لا بد أن تبدأ الحديث. ولكن ماذا أغضب منها؟ هل لاحظ أن بلوزتها تكشف عن جسمها؟ أو هل غالت في استعمال ظلال عينيها؟ أو هل استعملت الكثير من طلاء الشفاه؟ وشعرت أنها ربما أخطأت بحضورها إلى هذا المنزل ولكن عقلها هذاها بعكس ذلك لأن البروفيسور تيودور دعاها إلى منزله ولما الحق بالبقاء فيه بالرغم من نظرة عدم الترحيب التي تراها في عيني هذا الشاب الرماديتين.

وبدأت تقول:

«أنا أسفة».

كان هذا كل ما أمكنها قوله ثم أردفت تقول وهي تتراجع:

«سوف أذهب فلم يكن في نيتي أن أصابك».

«أذن أنت صديقة والدي؟»

«صديقة البروفيسور تيودور».

«ألم يذكرني أبي لك؟ ولكن هذا لا يدهشني فقد حاول أن ينسى ذلك لمدة اثنين وثلاثين عاماً».

وبعد فترة طويلة من الصمت أخذ ابن البروفيسور خلالها يتفحص ماريئا كناجر المجوهرات حين يتفحص قطعة من الأحجار الكريمة، ثم استأنف حديثه:

«انتي أعترف بذوقه».

ثم ارتكز بظهره على حافة النافذة ورشف من مشروبه وقال:

«ربما يفتخر أبي إلى الحكمة، وربما كان لا يتحفظ ولكنه يمتاز بالذوق».

شعرت ماريئا بالجمود ولاحظت أنه كلما شعرت بالتوتر أخذ هو يشعر بالارتياح فقالت له:

«اني أسفة يا سيد تيودور، لأنني لا أفهم ماذا تقول».

فقاطعها قائلاً:

«اسمي رايان. كل صديق لوالدي هو صديقي. دعيني أقدم لك شراباً...»

ثم اعتدل في وقفته وعبر الغرفة إلى منضدة صفت عليها زجاجات الشراب المختلفة.

«أنا لست صديقة والدك، ولكني أعمل في القسم الذي يرأسه».

«انك تدهشينني».

واستدار وقدم لها كأساً من الشراب فقبلته شاكراً، ثم ملأ كأسه ثانية.

وأضاف بعض الصودا إليه ثم ارتكز على المائدة يكاد يجلس عليها وقال:

«انك متعلمة وجيدة، ولك مزايا كافية أن تجعلك تتقاربين مع مستوى أبي

الرفيع. انه يشترط ان يعمل مع الصفوة من المساعدين الأذكياء أخبريني عن

مستوى ذكائك».

قال ذلك وهو ينظر إليها بتكاسل، وتدل نظراته انه يهتم بأشياء أخرى بجانب

ذكائها.

فقالت له:

«انا مساعدة في المعمل».

ولكنها كانت تمنى من كل قلبها أن تمحو من عينيه تلك النظرة التي لا تكن

لها الاحترام، والتي كانت لسبب غير مفهوم تشدها إليه.

ثم انفجر ضاحكاً وهو يقول:

«مساعدة في المعمل؟»

فاحمر وجه ماريئا غضباً، وشعرت أنها أوشكت على البكاء.

وسمعه يقول:

«هذا غريب مثل الأمير والحادمة. البروفسور ومساعدة المعمل الصغيرة».

ارتجفت شفتا ماريتا وراح ينظر إليها غابت ابتسامته وحلت مكانها نظرة اهتمام. وعندما تلفت لتجد مكاناً تضع فيه كأسها اقترب منها وقال وهو يضع يده على ذراعها:

«لا... لا دعينا نشرب نخباً أولاً».

فجاهدت كي تحافظ على كرامتها وعلى هدوئها وردت قائلة:

«شكراً. ولكني لن أشرب معك نخباً».

وابتسم ابتسامة غريبة وقال:

«تعال، فقد نتألف في المستقبل من غير أن ندري... ومن يدري ماذا يخفي القدر لنا».

ثم رفع كأسه ونظر إلى المشروب الذهبي وكأنه ينظر إلى كرة الكريستال التي يقرأ فيها العرافون الحظ وقال:

«إن في ذهني شيئاً هوشياً ملهم. ولكني سوف أحتفظ به كسر من الأسرار. قال المستقبل أنسة...»

ورفع حاجبيه يطلب الرد.

«نيويل...»

«أنسة نيويل، إلى المستقبل الذي لا يصدق عقل».

ثم تقارعت كأساهما.

وبينما هما يشربان النخب سمعا صوتاً بالباب يقول:

«الدكتور تيودور يا عزيزتي ماريتا، أقدم لك الدكتور رايان تيودور» استدارت ماريتا لتحيي مضيفها وقد اعترافا شيء من التخبط وقالت:

«الدكتور تيودور وهل هناك اثنان؟»

فقال الابن:

«أنه شيء يدعو إلى الحيرة، فكلانا حاصل على دكتوراة في الفلسفة وهي موجودة في نطاق العائلة».

ثم قال الأب وهو يضع يده على كتف ماريتا:

«إن مؤهلات ولدي العلمية تتساوى مع مؤهلاتي...»

«ولكن المادة تختلف».

فرد الأب يقول:

«لكل منا عالم».

«فأبني كما تعرفين متخصص في تنقية المعادن».

«وابني جيولوجي».

أذن فإن هذا الرجل موهوب كأبيه، وذكاؤه حاد مثله وإدراكه قوي وأنكاره لماحة، ولكن هل كان في حكمة أبيه وقدرته على وزن الأمور؟ وهل هو يتسم بالنضج الذي ينظر به إلى الأشياء وفهمها؟

«أنك مستغرقة في أفكارك يا أنسة نيويل. هل يقلقك أن تمضي فترة اجازتك في صحبة عملاقين من عمالقة الفكر؟ إذا كان هذا الأمر يقلقك فأرجو أن تشعرى بالراحة، فنحن في المنزل، كما ترين، شخصان عاديان ولا أكثر من ذلك. وخصوصاً في صحبة امرأة».

كان يقول ذلك وهو يبتسم ولكن عينيه ظللتا جامدتين.

أذن فهذا منزل رايان تيودور كما هو منزل والده، فهل ستتوافق إقامته مع إقامتها هنا؟ إن هذا الحاطر قد ألقها وضايقها.

وأخذ رايان الكأس من يدها قائلاً:

«سأتي لك بأخرى. وماذا تشرب يا أبي؟»

فرد عليه البروفسور قائلاً:

«كالمعتاد، وشكراً».

ثم طلب البروفسور من ماريتا أن تجلس بجانبه ووضع الوسادة وراء ظهرها، وكانت تصرفاته تدل على أنه يريد أن يرضيها. ثم ابتسم وسألها:

«هل تشعرين بالراحة يا عزيزتي؟ وهل تحتاجين إلى وسادة أخرى؟»

ووقف الابن أمامها ليقدّم لها المشروب، وقع نظرها على وجهه فإذا به يبتسم ابتسامة تختلف عن ابتسامة أبيه، ثم يوجه كلاماً كله سخرية كابتسامته:

«هل تريد أن تأتي لك مشرفة المنزل بمسند تضعين عليه قدميك يا أنسة نيويل؟ وهل نستخدم خادمة خاصة لك مدة إقامتك هنا؟ وهل تفرش لك الأرض ببساط أحمر أينما ذهبت؟»
فصاح والده وصوته يرتجف من الغضب:

«رايان!»

وهنا أدركت مارييتا، والحجل يكسو وجهها من سخرية الشاب، أن الأمور لا تستقيم بين البروفيسور وبين ابنه الشاب. وأرادت أن تغير من الحديث فسألت مضيفها متجاهلة الشاب:

«كم عمر هذا المنزل؟»

«حوالي مائتين وخمسين عاماً. وقد تغير طراز هذه الغرفة في مطلع القرن الماضي، وقسمت إلى غرفتين، أشغل الأخرى كمكتب لي.»
ورأت المدفأة وقد حلت محلها أجهزة التدفئة، وقد زين الجزء الأوسط من سقف الغرفة برسوم أوراق الشجر، وجدران الغرفة مكسوة بالأخشاب.
أما اللوحة العصرية الوحيدة الموجودة في الغرفة فكانت لوحة عصرية غامضة معلقة فوق المدفأة.

ثم قال هارفورد نيودور:

«هذه الأريكة من طراز شيبا نيويل، وخزانة الكتب من الطراز الجيورجي والمنضدة التي تحمل المشروبات مصنوعة من خشب الجوز وترجع إلى القرن الثامن عشر، أما المرأة فهي من طراز الملكة أن ومعظم هذه القطع اشتريتها مع المنزل نفسه.
«إنها كلها جميلة.»

ثم قال هارفورد:

«هذا المنزل يمتاز بالبساطة بخلاف غيره من منازل ذلك العصر وكان ذلك من الأسباب التي جعلتني اشتريه، فإن البساطة تروق لي.»
وتساءلت مارييتا: هل تخيلت أن عينيّه ظلتا معلقين بوجهها أم هذا هو الواقع.

ثم قال رايان وصوته يقطر سخرية:
«البساطة تريح رأس أبي المعقد. ولذلك...»
وأحجم عن أن يكمل كلماته فجأة. فهل أخافته نظرة التحدي التي رآها في عيني والده؟
ثم قال لها:

«هل تروق لك الأشياء القديمة القيمة يا أنسة نيويل؟»
ولاحظت أنه ركز على كلمة قديمة قليلاً.

ثم نظرت إليه فجأة. وللمرة الثانية لاحظت ابتسامة السخرية على فمه. فردت تقول:

«انتي أراها في نافذة العرض فقط يا دكتور نيودور.»
«وهل تفتقرين إلى المال لتحصلي على الكماليات؟»
«انتي، كما أخبرتك، مساعدة في معمل فقط.»
وحاولت أن تتفادي نظراته.

«لا بد أن أهلك ينتمون إلى أصحاب المداخليل الكبيرة.»
فرد والده يقول:

«رايان لا يجب أن...»

فتدخلت مارييتا تقول وهي تنظر إليه وتبتسم ابتسامة تحد:

«أبي توفي منذ سنوات مضت وأعيش الآن مع والدتي... استمر في أسئلتك يا دكتور نيودور.»
رفع رأسه وضحك عالياً وأخذ يرشف من مشروبه ثم ينظر إليها مفكراً يملأه الفضول وقال:

«سأخذ بكلامك وأسألك سؤالاً آخر ألا تعتقدين أنك أكبر قليلاً من أن تكوني مساعدة في معمل؟»
فرد والده يقول:

«كبيرة يا رايان؟ ماذا تقول، إنها في الرابعة والعشرين فقط إن بعض المساعدين عندها أكبر كثيراً من مارييتا.»

ولم تتحول عينا رايان عن وجه ماريثا وقال:

«ربما لم أحسن التعبير في سؤالي هذا. وربما قصدت أن أقول أنك أكبر من أن تظلي بدون زواج. أنك جذابة للرجال».

فهب البروفيسور تيودور واقفاً وهتف يقول:
«رايان!»

وبان الغضب الذي كان يشعر به وكأن ابنه اعتدى على كل شيء مقدس يخصه. ولم تقو ماريثا أن تبقى جالسة تتحمل الاهانة من اسئلة ابن البروفيسور تيودور المغرور، فوقفت وعيناها تقدحان شراً وقالت:
«لم أتزوج لأنني لم أقابل الشخص الذي يروق لي والذي يجعلني أفكر في إدماج بقية حياتي في حياته».

«هل هذا صحيح؟»
«نعم».

ودق ناقوس العشاء ينبه الموجودين ويرسل دقاته الى كل غرف المنزل ويعددهم أنهم سيجدون الألفة حول المائدة التي تنعكس على ضوءها أنوار الشموع والكؤوس. ويجدون الصحبة الهينة والحديث العذب.

وجدت ماريثا ما توقعته. فكانت المائدة من الخشب الداكن تتسع لجلوس ستة أشخاص. ولذلك بدا ثلاثتهم وأنهم تائهون فيها.

وتولت السيدة فيسك تقديم الطعام بمهارة أما الشراب فقد وزعه البروفيسور بنفسه. وبقي رايان معظم الوقت صامتاً لا يعبر وجهه عن شيء. وكان كل اهتمامه منصباً على الطعام الذي يأكله.

ولكن لم يفته ملاحظة الاهتمام الذي كان والده يغدقه على ضيفتها. فأخذ هارفورد يسأل ماريثا مرات اذا كان الطعام يروقها. وهل تطلب شيئاً آخر؟ وهل أعطتها السيدة فيسك كفايتها من الطعام أم زادته قليلاً أو أنقصته قليلاً؟

وكانت ماريثا جالسة على يمين البروفيسور تيودور، ولم ترفع عينيها مطلقاً لتتنظر الى ابنه الجالس تجاهها. ولكن عندما قارب العشاء أن ينتهي اقترح

تيودور أن يشربوا نخباً، فملأ الكؤوس وعندئذ نظرت ماريثا الى رايان. ثم قال هارفورد وهو يرفع كأسه عالياً ويقرع كأس ماريثا:
«الى صديقتي الصغيرة ماريثا».

ولكنه عندما قدم كأسه لابنه لم يقرع بقوة بل تردد. رايان ليريه كأنه يعاني من شيء. ولكنه تغلب على ما يقلقه وقدم كأسه وهو يقول:
«أنسة نويل».

ولكن ماريثا حاكت رايان في تردده. وكانت متعمدة في ذلك. فليهره كذلك كانت تعاني من صراع داخلي. ثم رفعت كأسها الى رايان بالرغم من أنها لم تكن عندها النية كي تلمس كأسه. ولكنه كانت تراوده أفكار أخرى فمال عبر المائدة وأمسك برسغها وقرب كأسها من كأسه ثم استمر في الإمساك بيدها حتى تلامست الكأسان.

وكانت الحرب سجلاً بينهما تفسد رسالة السلام والمحبة التي تميز كل الانتخاب.

ثم قال:

«الى صديقة والدي الصغيرة، الصغيرة جداً».

ثم ترك يدها بعد أن كسب الحرب الدائرة بينهما.

ولكن يبدو أنه لم يكن راضياً عن ذلك فقال لوالده:

«الآنسة نويل تتكرأها صديقة لك...»

ولكن لماذا أراد ان يسخر من والده ويتحدا؟ ثم نظرت ماريثا الى البروفيسور تيودور فلاحظت ان غضبه الذي أثاره رايان بإمساكه يدها قد زاد بكلامه.

«وفي الحقيقة عندما دعوتها بصديقتك احتجت لذلك وأصرّت أنها واحدة من أصغر موظفيك الذين يعملون في معملك».

ألقي رايان على أبيه نظرة ليري تأثير كلامه عليه. ولكن هارفورد أعد جوابه بكل عناية. فوضع فنجان القهوة على طبقه في الوسط تماماً ثم تناول الملعقة وبدأ وكأنه يدرس معدنها بعناية ثم وضعها ثانية وبعد ذلك أخذ يتحسس لحيته.

ثم قال أخيراً:

«موظفة؟ لا اني أفضل كلمة مساعدة. صغيرة؟ بالعكس فهي الواسطة الهامة في سلسلة تعليم الأسس التي يركز عليها القسم بل أي قسم علمي. وهي مهمة كالتواقة الصلبة».

ضحكت ماريتا وملاً وجهها الحجل وقالت:

«انك تخجلني يا بروفيسور تيودور».

وفي الوقت نفسه كانت تلاحظ اهتمام رايان بكلامها.

«لكن اذا تركت العمل!»

«سوف نبحث عن شخص آخر كي يشغل محلك وفي كل حال أنا مقتنع بعد معرفتك تلك المعرفة البسيطة، بأن إمكانياتك الذهنية أكبر مما أتصور».

«انه كرم منك ولكن...»

فقال البروفيسور:

«كرم؟ اني لا اتكلم عن الكرم بل وصلت الى هذه النتيجة بعد الملاحظة والنتائج الموضوعية».

ثم سمعت رايان يتمتع بسخرية ويقول:

«اهنت مكانة والذي العلمية يا آنسة نيويل. وكما ترين ان العالم يفكر بطريقة موضوعية محايدة في كل المواضيع... فهو يبعد نفسه عن أي مشكلة تقابله ثم يفصل فيها كشيء قائم بذاته، حتى كل عواطفه وشعوره وجهه اذا كان سيء الحظ وترك لنفسه العنان كي يخضع هذه العاطفة، فهو يبتعد ويحكم على الأشياء بهدوء وبدون تحيز وبطريقة علمية. وأنا كعالم أعرف الأشياء من التجارب».

«تجارب يا دكتور تيودور؟ انني مندهشة لعدم اتباعك الأسلوب العلمي كي تنمي عاطفة الحب لغيرك لا لنفسك فقط».

وكان وجهه الخالي من كل تعبير إلا السخرية الجارحة قد جعل ماريتا تشعر بالبرودة رغم دفء الشمس التي تسطع من النوافذ.

فضحك الأب وشعر الابن بالهزيمة ثم قال الأب:

«أحسنّت وصفه يا ماريتا. لقد قام بمغامرات كثيرة. ولكنه اعترف لي مرة أن الحب لم يمس قلبه أبداً... النوع الآخر من الحب لرجل في سنه أمر ملئم به. ولكن

الحب الدافئ العميق فلم يعرفه. ولذلك أحسن صنعاً انه لم يتزوج. فهو لا يعرف معنى الاخلاص».

ثم تلاقت نظراتهما في غضب وفي حرب لا هوادة فيها. وكان من الواضح أن المارة التي يشعر بها كلاهما لما عمق سحيق وأن كليهما قد جرح من الآخر فراح يخفي ذلك الجرح. وعرفت كذلك بغريزتها وبإحساسها الداخلي أن وصولها الى هذا المنزل قد عمق الخلاف. فشعرت بالخوف.

«أرجو ألا تشغل بالك بي يا دكتور تيودور. فامضي في عملك أو تسليتك وكأنني غير موجودة».

«عقلي يمكن تأجيله. أما تسليتي فأظن أنت أو أبي لا ترضيان بها أو توافقان عليها».

استدارت وسارت تجاه الباب وسمعته يقول:

«إلى أين أنت ذاهبة؟»

«إلى حجرتي، فلم أفرغ حقيبتي بعده».

«أجلى ذلك قليلاً. وتعالى لترى المنزل؟ سوف أصحبك إلى أنعامه وتتعرفي عليه».

كانت نبرات صوته الآن قوية بما جعلها تطيعه لنوعها.

ولحق بها عند الباب ثم وضع يده على ذراعها بخفة تماماً كما فعل والده، لم تؤثر لمسة والده عليها البتة أما تلامس ذراعها بيد ابنه فقد سبب لها شعوراً بالرجفة ولم تغلظ إلا التراجع ولم يخف تعجبه لأمرها.

ثم سبها إلى البهو وهو يقول:

«دعيني أريك الطريق».

ثم دفع أحد الأبواب المنقوشة وقال:

«هذا هو مكتب والدي».

وكما قال البروفيسور تيودور كان مكتبه جزءاً من غرفة الجلوس، وبالرغم من تآثر الأوراق ووجوه رزم المجلات وأكوام الكتب الموضوعة على مكتبه بجانب أقلام الرصاص ورسومات الطيور، فإن الحجر ما زالت تحتفظ بظلال من وقار يميزها وحدها. وبما أنها كانت جزءاً من غرفة الاستقبال الكبيرة النخبة فلم تفقد عراققتها كلها.

ثم قال رايان:

«ليست لدي البتة لأصف لك بدقة كل قطعة من قطع الأثاث وأذكر لك تاريخها».

ثم أغلق باب المكتب وفتح باباً ثانياً وقال:

«هذه الغرفة كانت معروفة بغرفة الاستقبال، وهنا يمكنك أن تشعر بالماضي يحيا

٢ - ماذا يريد منها؟

ودخلت السيدة فيسك إلى الغرفة ومعها مزيد من القهوة ساعد على تخفيف حدة الصمت الذي ساد جلستهم. قام البروفيسور تيودور من مقعده

وانحس قليلاً إلى ماريتا وقال:

«أرجو أن تأذني لي بالانصراف يا عزيزتي».

وراح ينظر إلى النافذة بشوق وحزين كأنه سجين بعد الدقائق حتى يتطابق مرأ ثم قال:

«طال بعدي عن منزلي على غير عادتي فلا بد أن أرجع إلى محباً مراقبة الطيور».

ووضع يده على ذراعها وأبقاها لبرهة ثم ذهب.

وسمعت ماريتا رايان يقول هامساً:

«والذي ترك لي العناية بالطفلة».

وركز على الكلمة الأخيرة مما جعل الدم يندفع إلى وجهها ثم أردف يقول:

«فيماذا أفعل بها؟»

كانت ماريتا متأكدة أن تسعة من عشرة من النساء يهرعن إليه فالحات أذرعهن له. وقالت لنفسها سأكون أنا العاشرة التي تشد عن هذه الفاعلة.

وسأبقى ثابتة ولن أخضع لأي خطوة نحو ذلك الرجل سواء كانت معنوية أم مادية. وعندما اقترب منها قامت ماريتا واقفة ووضعت المفعد في مكانه لكنها

نظرت إليه الآن وعينها تلحاحان شرراً.

ثم قالت له:

ثانية، فولدي أصر على بقاتها كما هي كي تحتفظ بالماضي».

ثم رفعت ماريانا عينها الى السقف الذي أخذت نقشه تتواصل وتلتف حتى تصل الى وسطه حيث تتدل ثريا الكريستال البراقة. ثم يطوف نظرها بالمشقة والمقاعد ذات القيمة التاريخية العظيمة، والى حيث كانت تتعلق صور أصحاب المنزل القديم لكنها وجدت صورتين الأولى خاصة بالبروفيسور تيودور نفسه عندما كان في الثلاثينات من عمره، والأخرى لرايان تيودور ربما رست له منذ عشر سنوات.

ولفت ماريانا تنظراً الى عيني الرجل في الصورة فوجدت أن عيني رايان حتى في تلك السنة جعلتاها تغشى من نظرها.

ثم قالت:

«أنتي لا أجد صورة...»

فتوقع استفسارها وقال:

«والدي توفيت بعد مولدي بساعات قليلة».

وكان يتكلم ببرود وعدم اهتمام. وكانت ماريانا تود أن تعرف كيف توفيت والدته ومن تولت تربيته من التي أرهقته كطفل؟

ثم قال لها:

«هل نظرت بما فيه الكفاية الى صور العائلة؟ وهل كنت تمنين من صميم قلبك أن يكون والدي الآن في السن التي يبدو فيها بالصورة؟»

فالتهب وجهها خجلاً وقالت:

«إنني لا أعرف ماذا ترمي اليه يا دكتور تيودور».

«هل تنتقل من هنا؟»

ثم استمر في إيلامها غير مبال بشعورها، فهو المسيطر في كل المواقف وهو المعتدي دائماً..

ثم صعدا السلم يتقدمها رايان وقد لزمها الصمت ولما وصلا الى أحد الأبواب أشار اليه رايان وقال:

«هذه هي غرفة أبي».

وكان من الظاهر أنه لم تكن لديه النية كي يرحل حجره والده من الداخل ولما وصلا الى الباب التالي قال لها:

«هذه هي حجره السيدة فيسك».

ثم أدار مقبض الباب في الممر نفسه، ودعا ماريانا للدخول وهو يتسهم ويقول:

«السيدة فيسك تنفض يدها من حجرتي أثناء وجودي هنا إذ لا تيدي أي محاولة لتجعل الغرفة بالغة النظافة كما يجعلها في غيبي».

وكانت غرفته واسعة كبقية غرف المنزل، لكنها تخلصت من العراقة التي اكتسبتها طوال أكثر من قرنين وتحولت الى غرفة للنوم، وللجلوس وللعمل معاً. وما لا شك فيه أن شخصية صاحبها كانت تنعكس عليها، فهو قادر، أن يدمغ كل شيء من ممتلكاته بشخصيته سواء كانت مادية مثل المكتب وماتعثر فوقه، والمقاعد الجلدية البنية اللون، والسرير الكبير العصري، أو كانت نساء حياته. ورأته يخلع سترته ويرقي على السرير ثم يلفك ربطة عنقه وراح يرانيها باهتمام وعيناه نصف مغلقتين، وشفتاه مقوستان. وشعرت ماريانا في الوقت نفسه أنها تحترق تحت نظراته، وأدركت ونهشها يسرع مدى جاذبيته. ولم يرجع ذلك لوسامته فحسب، بل لقامته الفارعة وكتفيه العريضين وسخريته وقوته المؤثرة. وشعرت بأنه يجذبها اليه بقوة ذهنه ويجعل عليها لرادته المخارقة كي يشدها الى الفراش وأصبح كل ما عليه أن يذ يده ويجذبها اليه. ثم...

وكانت ماريانا غاضبة من نفسها ومن احمرار وجهها الذي يتم عن أفكارها فأدارت ظهرها اليه، ولكنه لم يكن جاهلاً بالمغرب في نفسها بل هو يعرف تماماً بما تشعر به وسعته يحس من السرير قائلاً:

«لا»

فردت تقول:

«لا»

ثم ذهبت الى النافذة وأخذت تنظر الى ممتلكاتهم الواسعة.

وسمعه يحس ويقول:

«مجاربي دلنتي على أن النساء عادة لا يبدن أية صعوبة أمامي. ولكن البعض يجتبن إلى بعض الوقت أو الملاحظة».

«أنا اختلف عن ذلك الصنف الذي تعرفه من النساء».

فقال وهو مغمض العينين:

«ليس من النساء من تختلف عن ذلك. ففي هذه الأيام ماعلينا إلا أن تشير بأصابعنا حتى يأتين إلينا كالنقط ثم يطلين ما شئن...»

قالت وهي تنقلب:

«وهل يحصلن على ما يطلين؟»

فرد يقول باختصار:

«أنا رجل...»

ثم مرت فترة قال بعدها:

«هل صدقت ما قاله والذي عني أثناء العشاء؟»

«أن الحب الحقيقي لم يس قلبك؟ وأنت لم تشعر بدفع الحب النقي وبالعاطفة العميقة؟ نعم صدقته فتصرفك منذ أن قابلتك يدل على ذلك. في وسعي أن أقرأ شخصية الغير بسرعة فائقة».

ضحك عالياً وفتح عينيه ليهزأ بها ثم قال:

«مساعدة العمل الصغيرة تحولت إلى محلة نفسية في لمحة عين وهل تحللين شخصية والذي؟ وهل كشفت عن محبة المعقد؟ وهل فسرت نواياه ورغباته الحسيدة؟ وهل تعرفين كل أحلامه؟»

تأملت لسخريته ثم قصدت الباب وهي تقول:

«إذا كنت ترغب من تعريفي بأرجاء المنزل...»

نهض من السرير وأصلح رباط عنقه وقال:

«مازال هناك مكان آخر. إنه في الدور الأعلى...»

وعندما وصلا إلى الطابق الأعلى قال:

«هذا هو مكتبي عندما أكون هنا. حيث أعمل وأفكر في الماضي. وحيث أفكر في العصر الجليدي بجانب الصخور والمعادن وبقايا الحيوانات والنباتات».

وكانت المعدات هي التي لقت نظر ماريتا أولاً لأنها ذكرت لها قليلاً بالعمل الذي تعمل فيه. فكانت مليئة بالمجاهر والآلات وقطع الأحجار ثم انتهت وهو يراقب وجهها فقال لها:

«أراك مندهشة».

«أنا مندهشة فعلاً. فلديك كل هذه الآلات الرهيبة. وكنت أظن أن الجيولوجيين يحفرون لاستخراج كنوزهم من الأرض».

فضحك لهذه الفكرة وقال:

«إذا كنت تتوقعين أن نحدي هنا آلات أخرى مثل الكوريك والمجروف فأنت تقعين في خطأ عادي. فتخلطين بين الجيولوجيا والحفريات فعلماء الحفريات يتعاملون في نطاق آلاف السنين أما الجيولوجيين. فيتعاملون مع آلاف الملايين من السنين».

ثم أشار بيده وقال:

«هذا هو مجهر جيولوجي يكثر وبشيء الأشياء التي ترى من خلال أنبوبة. ولن أتأذى في تفسيره لأنه آلة معقدة حتى أن الشخص العادي لن يفهمه بسهولة. وخصوصاً مساعدة المعمل التابع للبروفيسور تيودور».

وابتسم بسخرية وقال:

«إن علم البترولوجيا هو دراسة الصخور».

ثم قصد إلى آلة أخرى وقال:

«هذا مجهر مصوّر يشبه سابقه. لكنه مزوّد بكاميرا فيمكنني أن أصوّر به دقائق المعادن والصخور».

ردت ماريتا تقول وعينها تيرقان:

«أبين وجدت بقايا الصخور وهذه النباتات الرائعة».

«جمعتها من كل أنحاء العالم. فحياتي مثل الزحل».

فقالت بدفشة:

«لئن فأنت لاندريس؟»

«لا. أنا لست مدرّساً أو محاضراً بل أترك التدريس الجامعي لوالدي المرموق

وأستخدم المعرفة التي اكتسبتها. فأنا في الأصل عالم في طبيعة الأرض.
«ولكن أباه قال أنك جيولوجي».

«في الأصل أنا جيولوجي ولكنني تلت مزيداً من الدرجات العلمية في تلك
المادة».

«إذا فانت ناهية كوالدك»

انحنى لها انحناء عميقة شاكراً.

ثم سألتها وهي تغامر وتتوقع أن يجرها:

«ولكن أين تعمل؟»

فابتسم وقال لها:

«العالم بأسره هو مكان عملي».

ولما قطعت قال لها:

«ربما أحملك تفهيم بوشوح اذا قلت لك انني اعمل في شركة أمريكية للتفط
وكعالم لطبيعة الأرض أزور أماكن مختلفة من العالم».

«أذن لماذا تبقى هنا؟»

«رجعت لنوي من ألاسكا في اجازة مدتها شهران. وفي الوقت نفسه اكتب
تقرير عن منجزاتي الى رؤسائي كي تبدأ الشركة في إقامة معدات لأبار النفط».

«انها مسؤولية كبيرة».

«نعم ولكنني أنال أتعاباً كبيرة جداً».

«أذن عليك أن تذهب الى حيث ترسلك الشركة! فعملك لا يعد نظرياً».

«كلا».

ثم راحت ماريثا تتخيله وهو يرتدي خذوة واقية على رأسه. ويتنقل الحذاء
العالي ثم يختار ملابس قديمة وربما كانت ملطخة بالوحل. وكان هذا الحامل لسيب
ما يشهدها.

ثم قالت له:

«هل تضايقتك هذه الحياة التي تنتقل فيها من بلد الى آخر؟»

فهز كتفيه وقال:

«مولدا تضايقتني؟ ليست لي روابط أسرية فلا زوجة ولا أولاد وليست لدي
مسؤوليات سوى عملي».

ثم ابتسم فتأكدت ماريثا انه سيقول شيئاً يلدغها.

«أنا خال من المضايقات، خال من مسؤولية النساء. ولدي المال بل الكثير منه.
وأقوم بعمل أحبه. وأجوب العالم. فماذا أطلب من الحياة أكثر من ذلك؟»

مدت ماريثا يدها لتلمس أحد المجاهر وقالت له:

«أليست لك صديقة؟»

مد يده ذات الأسابيع الطويلة. وقبض على راسها وأبعد يدها عن الآلة التي
كانت تلمسها فتزعت يدها منه وقالت غاضبة:

«أنا منخرسة في العمل على الآلات».

«لكنني أشك أنك استخدمت هذا الصنف الفريد من الآلات. ورداً على سؤالك
إذا كان كل رجل يتخذ لنفسه صديقة فهذه مسألة خاصة باحتياجات الجسد. نعم
ان لي صديقة».

وشعرت لسبب ما أن حلقها جف قليلاً ثم قالت له:

«هل ستتزوجها ذات يوم عندما تستقر؟»

«ليس لدي النية لأتزوج أو أستقر في مكان، لن أجعل المرأة تسقط على مستقبل.
ولن تقبل أي امرأة ان تتحمل الحياة التي أعيشها».

ابتسمت ماريثا وهست تقول:

«هل تقول انها رغبات الجسد؟»

«انني لا أجد أي صعوبة في إرضاء هذه الرغبات، فالنساء كثيرات وقد يصيحن
شجحات في بعض الأماكن ولكن هناك الأجازات التي يمكن للمرء أن يستغل
وقته فيها».

وفجأة شعرت بالاشمزاز من حديثها معاً فقالت بمرارة:

«والدك يعد ملاكاً إذا قورن بك».

فقال هامساً:

«دعيني أؤكد لمساعدة معمل أبي الصغيرة أن أبي في هذه الناحية يعد ملاكاً».

فعلًا. وهو قد يقول أي رغبة يشعر بها لأنه لا يظهر أية علامة خارجية تدل على هذا الاستيقاق.

وأمسك عن الكلام فترة ثم سأله:

«قولي لي ماذا تعدل مساعدة للعمل في سبيل الحصول على رزقها»
«أعد الأدوات التي يستخدمها الطلبة في إجراء التجارب، ثم أسجل النتائج في شكل رسم بياني، ثم أشرف على البحوث مثل بحوث الضغط في المعادن»
«نعم هيوط المعادن الذي يسبب سقوط الجسر وما شابه ذلك هذا مجال والذي وليس مجال»

ثم انكأ على المكتب وشبك يديه على صدره يتفحصها ولم يرحمها، فراح ينظر إلى جسمها وإلى وجهها الجذاب، ثم لس رأسها فابتعدت عنه وهي تتسائل: هل يلمسها متعمداً؟ وحيتش قال:

«إنك تثيريني. فلك عقل يستحق الدراسة لديه القدرة على التطور والأفكار البناءة. كان يمكنك أن تبادري بالقيام بتجاربك الخاصة بدلاً من مجرد إعداد المعدات للآخرين. فهاذا حدث لك!»

نظرت إلى الكتب الموضوعة فوق الرفوف التي تحيط بالرفقة، وقالت:
«عندما مات والذي أجبرت على ترك الدراسة. وأتيت عندما يأتي الحريف أن التحق بالدراسات وأتال مؤهلات أعلى. على أن تكون دراسات غير نظامية»
«ولماذا لا تلتحقين بدراسات نظامية حتى تحصلي على نتائج أسرع؟»
فهزت رأسها وقالت:

«إن والدتي تعمل ولكن مرتبها لا يكفيها معاً. فلا يمكنني التخلي عن وظيفتي وقد أحتاج إلى وقت طويل كي أخرج فعلي أن أحصل وأنتظر»
«سأسألك سؤالاً كما سأنتني من قبل. هل لك صديق؟»

وأردت أن تخرج على تدخله في صميم حياتها الخاصة ولكنها تذكرت تدخلها في حياته بسؤالها. وتذكرت جيمس، فهو عالم مثل البروفيسور. ولكن أقل منه درجات وهو ماهر جداً حتى أن البروفيسور يقدره ويحبه وكان جيمس مهتماً جداً بعمله فقط

كانا يخرجوا معاً أحياناً وكان حديثه معها ينصب على العمل وحده. وكان يعانقها من وقت لآخر، لكنها كانت تشعر أن عقله متعلق بالعمل. فأجابت دون تردد:

«اسمه جيمس هبستون وهو في السابعة والعشرين من عمره. طويل القامة، نحيل، ويكرس نفسه لعمله دائماً، وهو محاضر في قسم والدك»

«هل أنت جادة في حبه وهل تتوين الزواج به؟»

لسب ما لم تتأ أن تقول الحقيقة لذلك الرجل، فأكتفت بقولها:

«ربما تزوجنا. من يدري؟»

«لكنك أكثرت لي على العشاء أنك لم تقابلي بعد الرجل الذي تريد أن تدجسي حياتك بحياته إلى الأبد»

وخيل إليها أنه غلبها ثم قالت:

«أنتي... جيمس هو أقرب رجل إلى المثالية التي وضعتها لحياتي»

فراح يسخر ويقول:

«جيمس يحفظ فهل يدري يحطه السعيد؟ ومتى ستطربين منه أن يتزوجك؟»

وفجأة قبضت يدها على قطعة من عينات الصخور، وكانت يدها تتحرك بدون إرادتها، وتود أن تتفاهم بطريقة الخاصة مع ذلك الرجل الساخر الذي لا يحتمل. ولكن لماذا كانت هذه اليد سوف تفعل بهذه القطعة من الصخر إذا قدر لها أن ترفعها من مكانها فإن ماريتا لم تدرك إلا بيد قوية أخرى وقد قبضت على رسغها للمرة الثالثة في تلك الليلة. ولكن في تلك المرة لم تبد أية رحمة

فقال لها أمراً:

«استطيه من يدك»

فأطاعته اليد الفاضة على الصخرة. ولكنه ظل يقبض على يدها حتى بعد أن ألقت بقطعة الصخر

وقتمت ماريتا باعتذار عندما ترك يدها، وشعرت بدورة الدماء تنتظم في ذراعها، وراحت تدلك جلدتها المصاب وتقول وهي تحاول جهداً

ان تغلب على مهانتها وانتهزها. وفي الوقت نفسه تبدي سحرها:

«لا بد ان هناك مزيداً من الأتياء تريد معرفتها»

فنظر الى شفتيها الممتلئتين بقلق والى صدرها تحت البلوزة الدانتيل. والى ردفها تحت التنورة الطويلة ثم قال:

«نعم ولكني أشك أنك سوف تجيبي عليها. وعلى سبيل المثال هل مظهر جسمك يتناسب مع البراءة التي تظهر على وجهك؟»

قالت لتخفي خجلها:

«بالنسبة الى رجل قابلته اليوم للمرة الأولى أرى ان هذه الأسئلة تعد شخصية جداً».

وتعجبت كيف يفللها رايان عندما يكتشف لها ذلك الجانب الجاف الوديع من حياته! كانت نسائه الوسيمة تنبش بالحياة ويضفي الذكاء الذي يشع من عينيه اللهايتين ضوءاً باهراً.

ثم أخبرها انه يجب التجول سعيداً بحريته. أما النساء اللواتي يقابلهن وتعرضن حياته فيمضي وقتاً ثم ينسأمن الى الأبد.

ولكن لماذا يفللها هذا الرجل؟

ونظر رايان اليها ولم يشأ أن يقطع حبل أفكارها. فلما قصدت النافذة ترك الصخرة جانباً ثم تبعها.

فهست تقول:

«هذا المنظر يأخذ بجامع القلوب. انه يجعلك ترى المناظر عن بعد كبير».

«ولهذا السبب سمى هذا المنزل مبنى الأفق».

ثم أشار اليها بيده. بينما وضع يده الأخرى على كتفها. فأخذت مارينا تمهّده كي تركز على المناظر الخارجية المحيطة بها وقال:

«الأفق يبدو من خلال الحقول والجداول».

فنظرت مارينا مبهورة الى المناظر الجميلة ذات الألوان الهادئة. ثم هست تقول:

«ولا شك أنك اخترت هذه الغرفة لمكتبك. فهي أفضل غرفة في البيت كله».

وأنا سعيد لأنك تقررين مزاياها وتتغاضين عن القوضى السائدة بها».

فالتفت قائلة:

«قوضى! لم ألاحظ ذلك إلا بعد أن انتهتني اليها».

لتضحك وقال:

«أنت امرأة نادرة الوجود. معظم بنات جنسك يحاولن إصلاح هذه القوضى».

«وهل تسميها صديقتك قوضى؟»

ثم انتظرت رده وهي متوترة فقال:

«صديقتي جيولوجية أيضاً».

وكان ذلك رداً مقنعاً لسؤال مارينا

«وهي مدرّسة في مدرسة ثانوية في سانفولك».

وتساءلت مارينا: لماذا اعترت المنظر الممتد أمامها العتمة فجأة؟ لا بد أن السبب غروب الشمس واختفاؤها وراء الأفق.

وفي غرفة الاستقبال أحضرت السيدة فيسك اليهم شراب الشوكولاتة الساخن. وكان رايان يجلس على مقعد وثير وقد مذ سائيه يتراخ بينما تقاسم والده الأريكة مع مارينا.

ولم يترك البروفيسور تيودور ملاسه التي كان يرتديها قبل مغادرتهم الجامعة. قد مرع عند وصولهم الى محلاً في الحديقة. والى المنظر الخاص به. والى مراتبه للطيور.

ومن الغريب أن الأب والابن يختلفان الاختلاف الكبير فأحدهما يحب الوحدة ويلجأ الى الأماكن الخفية كي يراقب الطيور. أما الآخر فهو يطلب هذه الحرية لنفسه. الحرية التي يفضلها على كل شيء آخر وهو كذلك لا يتحمل القيود التي تليها العواطف المتضاربة وعواطف النساء المختلفة وخصوصاً حب المرأة.

ولما جلست مارينا بجانب هارفورد تيودور. وكانت أول مرة تجلس فيها قريبة منه منذ عملها معه. لاحظت بعض أشياء لم تلاحظها من قبل. فقد لقت نظرها أن اطار كسي قميصه قد يلي قليلاً وأصبحنا في حاجة الى الغسيل. وكان حذائه ينقصه اللعنان. أما ملاسه فكان يرجع طرازها الى أحقاب مضت. ولذلك

شعرت أنه نزل من عليائه التي كان يحتلها في نظرها. تلك العلياء التي رفعه إليها مركزه ومنزلته العلمية وذهنه الحاد.

وفي الجانب الآخر كان ابنه يرتدي آخر صيحة من الملابس. والغريب أن قربه منها كان يشعرها أنه بعيد المنال وهو لا يجعلها تشعر نحوه بأي تعاطف كما تشعر نحو والده. بل هو شعور منهم من القلق وعدم الاستقرار.

ثم قدم البروفيسور تيودور إلى مارييتا مزهداً من الشوكولاته الساخنة وسألها إذا كانت تشعر بالراحة. وإذا كانت تحتاج إلى شيء واعتبر لها لأنه أهملها فلم يتسكن من مقاومة عدم ذهابه إلى عمياء الكائن في غابات ممتلكاته؟

وقال لها وهو متلطف في كلامه، وكأنه شرب شيئاً غير الشوكولاته. إنه عمن لقبوها دعوته لتضي معه اجازتها. وشكرها لأن صاحبها تعد أكبر هدية له.

وقال لها إن وجودها معه جعله يشعر بأنه أصغر من سنه بكثير، وأنه يتسنى ألا تسرع بالعودة إلى بيتها وكان يتكلم بإخلاص جعلها تشعر بالقلق. وأتت على نفسها ألا تخذله وأن تهتم اهتماماً عميقاً بامر حياة الطيور الذي يوليه أهمية خاصة.

ثم قال:

«أظن أن هناك فارقاً كبيراً في السن بيننا وتصلنا قوة سحيقة من السنين. وأعتقد أنني نجرأت ودعوتك بصديقتي».

ثم راح يحاطبها كالأطفال وقال:

«وهل تعارضين في هذه التسمية؟ وهل أدعوك صديقتي؟»

حرك هذا التواضع في نفسها شعوراً قوياً جعلها تزد أن تجهش بالبكاء. فهزّت رأسها موافقة مما جعله ينسم بارتياح. وبحركة لا شعورية نظرت مارييتا إلى ابن البروفيسور الجالس ماداً ساقيه في مقعده الوثني. مغنض العينين ملقياً برأسه إلى الوراء. ويبدو أنه كان يستمع إلى حديثها، إذ دلت على ذلك عضلات وجهه المتوترة وجمود شفتيه ثم قالت:

«لماذا تسب السنوات، بين أي شخصين، حاجزاً يمنع صداقتها؟»

وبدت في عيني البروفيسور نظرة أكثر من نظرة ارتياح. بل نظرة امتنان. ثم

أردفت تقول:

«ولماذا يحد السنّ الناس من لقاء بعضهم البعض في عالم الفكر والعقل؟ وخصوصاً إذا كانوا يتفاسمون الاهتمام بشيء ما».

وفجأة رأت الابن ينتفض وينظر إليها باهتمام وتفكير. ولاحظت أن عينييه القائمتين تبحثان فيها عن شيء ما. ثم حوّل نظره إلى والده ولكن الأخير كان مشغولاً بالنظر إلى مارييتا. وكانت يده تتحرك بتردد كي يضعها على يدها وهو يقول لها:

«أنا سعيد لوجودك معنا يا عزيزتي».

وسمعت ثانية تلك الكلمات التي فاحت بها والدتها والتي ما زالت تطنّ في أذنيها عندما قالت: «لا بدّ أنه مهتم بك لشخصك» فهل كانت والدتها على حق؟ وشاركت مارييتا البروفيسور طعام الإفطار. وكان بينوان رايمان فرغ من تناول طعامه وذهب.

ثم سمعت البروفيسور يقول:

«أصبحك هذا الصباح إلى المخبأ. وهناك جدول يجري في أراضينا وهو واحد من روافد أحد أنهار نور فولك. وعندما أذهب إلى المخبأ أشعر بأنني محطوط لرؤية الطيور التي تزور الأنهار والمستنقعات».

ثم استمرّ في تناول الطعام وقال:

«هنا تعرفين أن شرق أنغليا، وخصوصاً هذا الجزء منها، تعد أفضل مكان في البلاد لمراقبة الطيور».

إن مارييتا تجهل هذه الأمور ولكنها هزت رأسها موافقة وقالت له إنها تفهم الآن لماذا يعتنى مضيفها منزله هذا.

فأمن على كلامها وقال:

«هناك سبب آخر وهو أن المنزل تكتنفه الذكريات الكثيرة».

وبدا في سوته الحنين إلى الماضي. وراح يفكر في تلك الذكريات الغالية ولكنه نظفها عنه ورجع إلى الحاضر ثم قال:

«أمارس هواية مراقبة الطيور وحدي، فأشعر بالوحدة وابني لا يشاركني هذه

المهابة، وزملائي بالجامعة يجهلون كل شيء عنها.

ثم قال:

«ولذلك أقدر اهتمامك يا ماريثا. ويمكنني أن أتولى تدريب عقلك الشاب وتعليمه وأسقيه حب مراقبة الطيور نظرة نظرة حتى يتعادل هذا الحب مع الزمن مع حيي له ولا تعلمي بفرط سروري لبثائك معي أثناء هذه الاجازة».

فشعرت ماريثا بمسؤولية العمل الذي آلت على نفسها ان تقوم به، ولم تقو أن تخبر البروفيسور أنها ليست لها ذاكرة قوية تسجل الأشياء فور رؤيتها فكانت لا تذكر الأفراد اذا التقت بهم للمرة الثانية، فما بالك بالملخوقات البرية الموجودة في عالم الطيور؟

ولما وصلت الى المخبأ وجدتته مخفياً بين الأغصان وتحت أوراق الأشجار ويمر من جانبه جدول ماء، وسمعت حوله أصوات الطيور تغني سعيده في ساعات الصباح الباكر الندي.

وكان المخبأ يكاد لا يتسع لشخصين، مبنياً من مواسير الألومنيوم والفخاش السميكة الذي صنع منه غطاء الباب يرفع كلما دخل شخص فيه أو خرج منه وفي الباب رأيت ماريثا ثقب الباب.

ثم قال لها هارفورد:

«أنتي أضطر الى البقاء أحياناً لعدة ساعات».

«وماذا تفعل لتناول الوجبات؟»

هز كتفيه وقال:

«عندما أتذكر أحضر معي بعض الشطائر وزجاجة من الماء. وتادراً ما أسمح لأحد أن يأتي الى هنا لدى قيامي بالمراقبة».

ثم ابتسم وقال وقد برقت عيناه:

«إن لي الآن رفيقاً يزينني في وحدتي، ولن نتكلم إلا همساً».

فملكتها الحروف، فهل ظن البروفيسور أنها ستبقى معه أثناء هذه الساعات الطويلة وبدون كلام؟ وما زاد من خوفها انها وجدت انه زرد المخبأ بقعد لها فرأت مقعدين صغيرين يمكن طيها، ورأت وسادة على أحدهما، ففكرت أن يكون هذا المقعد لها.

ولكن يظهر أن بقاءها في المخبأ هذه المرة لن يطول. فقد قال لها:

«إن لدى اثنين أو ثلاثة من الطيور تحت المراقبة. وهناك واحد أهتم به اهتماماً خاصاً. فصغاره التي تخرج من البيض تبقى مدة طويلة في العش على غير عادة».

ثم أتى أرتاب العصفور المسمى متسلق الأشجار الذي جاء متوهجاً في الأرض بشكل عجب. فهل سمعت عن ذلك الطير؟

هزت ماريثا رأسها بالنفي فأكمل يقول:

«من الصعب رؤيته. فهو يأتي متخفياً بلونه البني الذي يشبه ثمر الجوز التي ينسلقها. أما صدره فلونه أبيض، وهو الطير الوحيد الذي يعيش في اليابسة ويتقوس منقاره».

والنفس الصباح وأخذ البروفيسور خلاله يكتب ملاحظات مفصلة ثم رفع النظارة عن عينه وأعطاه ماريثا لمراقبة تحركات الطيور وقال لها:

«إن أرفئك بذكر اسماء الطيور اليوم، فلدينا الوقت الكافي للتفسير في يوم آخر».

ثم وضع يده على كتفها وقال:

«وفي كل حال فأنت موجودة هنا معي. طالما تمكنت والدتك من الاستغناء عنك».

لم يظهر رايان على مائدة الغداء، إذ كان مشغولاً، حسب قول والده في كتابة التقرير الخاص برحلته الأخيرة الى الخارج. ثم قالت ماريثا:

«إن له صديقة جيولوجية مثله كما أخبرني».

«تتصدين دورين فورسترا؟ نعم انها تحبه وتود أن تتزوجه، لكن ما فائدة زواجه وهو يهتم بنفسه فقط».

ثم قالت وهي تعجب كيف تلتفت الى هذا الموضوع الذي لا يخصها:

«واقفاً أحبته امرأة حباً كبيراً هل يكفي ذلك كي تغيره ويجعله أقل أنانية؟» ضحك والده وقال:

«لكن فكرة غريبة عن تأثير النساء على الرجال يا عزيزتي، وهذا ما يفل على ساجدك».

ثم أكمل الأب يقول:

«لا إنه ليس في حاجة إلى حب امرأة، فقد تربى بدون أم».

ثم كفى عن الكلام وتهدد ورجع يقول:

«قد أمضى كل سنوات حياته الاثنين والثلاثين بدون أن يعرف رقة المرأة ورعايتها. واني لا أرى مانعاً في أن يكمل حياته على هذا المنوال، فهو لن يتغير أبداً. أعرف ولدي جيداً».

وبعد برهة قال هارفورد:

«سوف أخرج الآن لأتني مدعو إلى اجتماع بضم زملًا لي من هواة مراقبة الطيور، وسوف أصحبك ذات يوم إلى مثل هذه الاجتماعات».

«ذات يوم...»

وكان الجو قد تغير فظهرت السحب ولكن الشمس ظلت تسطع من حين لآخر، فأخذت مارييتا تتجول في الحديقة، ومزّت على نخب البروفيسور، فنظرت إليه باحترام وكأنه بداخله.

وشعرت يدهو وسلام إلى جانب الغدير. كانت الطيور تحط على الصخور وسط الماء أو تغني على أغصان الأشجار فهل يأتي الوقت وتصبح هي خبيرة البروفيسور في معرفة أنواع هذه المخلوقات الجذابة؟

ولما رجعت من جولتها رأت السيدة ليسك آتية من المنزل في يدها صينية. وهي تقول:

«أتيت بالشاي لك يا آنسة نيويل، أما الدكتور تيودور فقد ذهب ليأتي باللقاعد والمنشدة قال إنه وآله من نافذته وأنت تتجولين، فأفترج أن أتني بالشاي اليك».

اذن فطوال الوقت حين كانت تظن أنها تحررت من وجوده، كانت في الواقع تحت مراقبته.

فابتدأت مارييتا تقول:

«هذا شعور لطيف منه»

ولكن سيدة ليسك أكدت لها أنه شيء بسيط ثم قالت:

«من النادر أن أفكر من اقتناع الدكتور تيودور أن يغادر مكتبه، وهكذا والده».

فلا أفكر من جعله يعود إلى المنزل».

ثم ظهر الابن حاملاً متشدة ومقاعد من النوع الذي يطوى وقال وهو يفرق المقاعد لها:

«لماذا كنت تتساملين لماذا أفرض نفسي عليك أقول أنني لم أشأ أن أترك صديقة والدي تتناول الشاي وحدها».

فردت عليه بحدّة:

«لا داعي أن تكلف نفسك القيام بالترحيب بي ومحيتي».

فابتسم وقال:

«عندما رجعت إلى هنا استريح، واكتب التقرير عن عيلى لم أكن أتوقع أن يأتي والذي بصحبة فتاة جميلة مثلك. وكان قد أنذرني أنه سوف يأتي بصديقة له، وبما أنني أعرف ذلك الطراز من الناس الذي يصادفه لم أفكر من إخفاء دهشتي عندما ظهرت على عتبة باب غرفة الطعام».

وتذكرت مارييتا تعبير وجهه عندما وقع نظره عليها لأول مرة حيث ظهر في عينيه الخوف بجانب الدهشة.

وطلب منها أن تصب لها الشاي ووجدت مع الشاي فطائر اللاكهة ومرحب المشمش المصنوع في المنزل بجانب بسكوت الشوكولاتة. قالت مارييتا كي تنهي الصمت الذي ساد جلستها وكى تغذي فضولها:

«أظن أنك رجعت لتوك من رحلة في الخارج؟»

فهرّ لها رأسه وكأن الأمر لا يعنيه وقال:

«إنها رحلة من رحلاتي الكثيرة في أنحاء العالم».

«قال لي والدك أنك تستمتع بها، فهل هي جزء من تلك الحرية التي تحبها؟» ثم لاحظ مغاللتها في الابتسام فرد عليها ببرود قائلاً:

«هل تسخرين مني؟»

فلم تجبه وظلت ساكنة. ثم أكمل كلامه يقول:

«تقول لي ما هي الحرية التي يتمتع بها رجل ربط نفسه بزوجة وأولاد؟»

فهمتت تقول:

«لم أقابل، من قبل، رجلاً أنانياً وفاسياً مثلك وعلى كل حال فإن ما يطلبه معظم الرجال من الحياة زوجة وأسرة».

«ربما اختلفت عن معظم الناس، وربما أردت أن أقتنع بحريتي وذهبت في أي وقت وإلى أي مكان شئت، فإن فكرة التخلي عن حريتي لأتخذ لنفسي زوجة محبة تطوئني بذراعيها وتهديني بطرق تعسفية هي فكرة مكروهة لدي».

هل كان يعني ما يقول! هل كان صادقاً في كلامه أم أراد أن يثيرها! ثم أخرج حصة من جيبه وراح يدفعها باهتمام وثقة، فتمكنت مارينا من قراءة تعبيرات وجهه، وكأنها تنتظر في صفحة كتبت بلغة غريبة.

وشعرت بالتمسّك من كلامه لكنها سألت نفسها: بأي حق تنصب له الميزان! فهو مجرد ابن مضيئ وبالثاني لاجئها في شيء.

ثم نظر إليها وأعاد نظره إلى الصخرة في يده وسعها تقول:

«أظن من رأيك أن المرأة لا تفقد شيئاً بالزواج بل تكسب كل شيء منه».

«نعم هذا هو رأيي. وعلى سبيل المثال لن تخسري حريتك بالزواج بل تحصلين عليها. فلن تضطري إلى العمل ثانية، ويمكنك أن تبقى مؤهلاتك محدودة كما هي الآن، وتدعي عقلك يعلو الصدا فتتخطين بقوالب العقلية، كمعظم النساء».

فقاطعتها بقولها:

«ذلك إذا تزوجت. ولكني ذكرت لك من قبل أنني لم أجد بعد الرجل الذي يجعلني راعية في الزواج... وإذا كان الرجل الذي فتر أن أتزوجه فقيراً فسأخرج إلى العمل. أما إذا كان غنياً فسألتحق بقصود التعليم وأدخل الامتحانات لأحصل على المؤهلات التي تحلّيت عنها عندما مات والدي».

«أذكرني لي سبب مجيئك إلى هنا».

فنظرت إليه بهشة وقالت:

«لأن والدك دعاني. لماذا تطّبق حاجبيك؟ ألا تصدقني؟»

«أصدق ما تقولين ولكن لماذا دعاك أبي؟»

فكرت لبرهة وقالت:

«بصراحة لا أعرف لذلك سبباً. كان يأتي إلى العمل مرّات كثيرة عندما أكون

هناك ويكلمني ويقتربي مع أنني مجرد مساعدة».

ثم ترددت وقالت:

في يوم كنت أراقب أحد الطيور من نافذة المعمل وتساءلت عن اسمه، وكان والدك هناك فأجابني. وبعد ذلك لاحظت اهتمامه الكبير بي. فربما وجد في إمكانيات توهمتي أن أكون زميلة له في مراقبة الطيور».

رفع حاجبيه وقال وكأنه يحدث نفسه.

«لا بد أن هناك سبباً».

أرادت أن تفعل شيئاً حتى تهدئ من أعصابها المتوترة. فجمعت أدوات الثنائي ووضعتها على الصينية، وودت أن يغادر رايان الحديقة ويذهب فهذا الرجل يشايقها ويجمعها قلقاً.

وأرادت مارينا أن تكسر حدة السكون الذي ساد جلستها فسأله قائلة:

«أين تذهب في رحلاتك إلى الخارج؟»

فنتبه رايان وقال:

«إلى كل أنحاء العالم. أذهب إلى الأعراس وإلى الصحاري، وأخوض المستنقعات وأستلقي الصخور أقحمس عواصف التراب والرمال، وأزور حظارات أبار البترول أثناء العواصف وفوق مياه البحر الهادرة».

فكرت مارينا في المخاطر التي تعرّض لها وتقلّب عليها. وتعجبت لتعدد جوانب شخصيته، وبناء جسده المتين الذي يعكس نوع حياته. فهل يمكن لأي امرأة أن تفعله يحتاج إليها ولا يمكنه الاستغناء عنها! والتسور بأنه ليس متكاملًا بدونها بعد ذلك!

الجواب على هذا السؤال: لا. وكان هذا الحاطر يثقلها كثيراً. ثم قام واعتذر لها لتتركها وحدها وشكرها على وجودها معه. وبينما كان يدخل إلى المنزل، توارت الشمس خلف سحابة فبدأ العالم في نظرها تلك اللحظة مظلمًا.

طريقة استعمال المنظار قد تبدو معقدة في البداية ولكن عندما تجيدين تركيزه بسرعة على الهدف، لن تجدي صعوبة بعد ذلك.
ثم نظري الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة وقال:
«يجب أن أغتسل وأبدل ملابس لي للعشاء. وقد أسرعت اليك أولاً لأجذك.»
ثم نظري إلى هديته وهو سعيد كالصبي الصغير وقال:
«هل أنت سعيدة بها؟»

«إنها رائعة يا بروفيسور تيودور. وأنا فرحة بها لأنها جاءت كمفاجأة لي.»
فرح لفرحها الظاهر. ثم فتح الباب ودخل رايان، ولكن مارييتا قالت لنفسها عندما سمعت البروفيسور يقول:

«يجب أن تاديني بهارفورد يا مارييتا. نحن صديقان. أليس كذلك؟»
وفر البروفيسور رأسه محبباً ولده، وطمأنه بأنه سوف ينظم إليها بعد قليل. ثم أغلق الباب وراءه - فساد صمت طويل. وراحت مارييتا تتنحس المنظار وتلسه برقة. ولا تدري ماذا تفعل به، وأخيراً رفعت رأسها فرأت رايان وقد ارتدى ملابس عادية هذا المساء، بعيدة عن الرسميات.

وفزعت مارييتا من دقات قلبها عند رؤيته، وشعرت بأن كل عصب في جسمها يرتجف ويهتز عندما تقابلت عيناه الرماديتان بعينيها. ثم قال لها:
«أفإن أنيأ تستخدمان الأسماء المجردة الآن.»
ردت تقول:

«نعم نستخدم الأسماء مجردة. ولا بد أنك سمعت حديث والدك معي وأنا متأكدة أنه لا يفتنك شيء.»
ثم عبر الغرفة واقترب منها فشعرت بأن تنفسها أصبح سريعاً وسطحياً ثم قال لها:

«ويبدو كذلك أنها لا تفوتك بعض الحيل.»
«أنا لا أفهم ما تعنيه بذلك.»
فقال وهو يشير إلى المنظار:
«إنه يخلصك ولا يخلص أمني.»

٣ - الساخر يفاجئها

رجع البروفيسور تيودور إلى المنزل وقت العشاء. وكانت مارييتا قد بدلت ملابسها ووقفت في نافذة غرفة الاستقبال حائرة لا تدري ماذا تفعل. ثم فتح الباب فشعرت أن قلبها يخفق فجأة فلتأت منها أنه رايان، ولكنها رأت والده وكان يمسك رزمة في يده. فقصص النافذة حيث تنفث مارييتا وبدون أن يتعلق بكلمة، قدم إليها تلك الرزمة قائلاً بأهتسامة:
«افتحيها.»

فتحت الصندوق ثم شعرت بشدة وقالت له:
«منظار مكبر! ولكن لماذا؟»

«إن كل مراقب للطيور لا يمكنه ممارسة هوايته بهارة بدون منظار يا مارييتا. ثم بدأت تقول:
«ولكني لست...»

ولكن ماذا تقول له؟ هل تقول: أنا لست هواية مراقبة طيور حتى أستخر هذا المنظار؟

واكتفت بقولها:
«إنه رائع منك. ولكنني في الحقيقة...»

فقال لها بحزم:

«لا بد أن تقبله إذا كنا سنراقب الطيور معاً. يمكننا أن نتفاسم المخبأ ولكن لا يمكننا الاشتراك في منظار واحد. يجب أن تقرأى التعليقات أولاً ثم أرشدك إلى

«وهل ظننت أنني طلبت من والدك شراء؟»

فقال هازناً:

«لا شيء في الدنيا أصبح مستقيماً وعادلاً. فللمرأة طرق كي تحصل على ما تريد من الرجل بدون أن تطلب.»

«ولكنك مخطئ. في ذلك.»

وكان هذا الرجل ينقصه الذوق ولا عجب أن يختلف مع والده، فمن يمكنه أن يعيش في وفاق مع رجل مثله؟

فقالت له والغضب يتملكها:

«أنتك تعني بكلارك أشياء أخرى تطفخني بالتهم يا دكتور تيودور. وأنا أحتج على ذلك. أنتك تبني اتهاماتك على أوام، فليس هناك من الحقائق ما يمكنه أن يكون قاعدة لهذا الاستنتاج.»

فقال لها وهو يصب نفسه بعض الشراب:

«أنتك تتكلمين كالعلماء فتذكرين الحقائق، من علمك ذلك؟ هل هو والدي؟»

«علاقتي بوالدك ليست حميمة كما تظن. وتذكر أنني أعمل بين العلماء.»

«نعم ولك منهم حبيب.»

فصاحت ما يقول:

«هل صديق؟»

رفع أحد حاجبيه ورجعت تقول مؤكدة:

«نعم صديق. أليس من الضروري يا دكتور تيودور أن يستلبي العلماء الحقائق من مصادرها الصحيحة.»

فرد بسرعة قائلاً:

«لا يتحدث ذلك دائماً. قد يضطر العالم أحياناً أن يفترض نظريات قبل أن يضعها للتجارب ليكتشف حقيقة علمية يا مارييتا.»

واستعذبت اسمها على شفتيه وتحرك شيء في صدرها فجأة كالطير المذعور وهو يطير هارباً. وسمعت اسمها لأول مرة وقد بدا غريباً وله معنى جميل.

ثم سألتها سؤالاً عابراً:

«وهل تقبلين هدية والدي؟»

«ولم لا؟ أعطائها لي كجهاز وليست هدية.»

قال وهو مكتئب: على المشقة:

«جهاز؟ ما قد عدنا إلى العمل ثانية. وهو جهاز ثمين يا مارييتا.»

وخفق قلبها. فهل ستقوى على أن تتأديه بأسه مجرداً؟

«هل في ملبورك أن تقدرني ثمنه؟»

فردت تقول:

«سوف أتركه عندما أمضي من هنا.»

«وتجرحين مشاعر والدي؟»

«أعطاء لي لمراقبة الطيور وقال أننا لن نتمكن من استخدام منظار واحد. وعندما أذهب لن أحتاج إليه.»

«هل سوف تحتاجين إليه، وتعرفين ذلك جيداً. وبما أنه أنفق المال والوقت في تدريبك كي تشاركين حماسه في دراسة عادات الطيور وأماكن معيشتها. فإذا رجعت إلى منزلك ينتظر منك أن تستري في اهتمامك بها، فبما لا شك فيه أنك سوف تعودين إلى هنا في فترات منتظمة لتشاركيه هوايته.»

ثم أضاف وقد استهوته فكرة ما:

«هذا إذا لم تشاركيه شيئاً آخر.»

ولم تعر مارييتا هذا التعليق اهتماماً. فقد ألمها أن مجرد ملحوظة عن العصفور الأسود الذي رآته خارج نافذة مختبر الجامعة منذ أسابيع قليلة جعلتها مقبلة تجاه رجل كالبيروفسكي تيودور.

اصطحب هارلورد مارييتا إلى المخيم في اليوم التالي، علمها كيف تستخدم المنظار وأراها التليسكوب وحاملها ذا الثلاثة قوائم، اشتراها ليراقب الطيور به.

وقال لها:

«التليسكوب لن ينفعك كمبتدئة فهو يتطلب أن تركزي بسرعة على الطيور»

القريبة نسبياً.

ثم لمسه بإعزاز وتقدير وقال:

«كلّفتي الكثير من المال».

المال... انه الشيء النافع الذي لا يفتقر اليه كل من الأب والأبن.

ثم قال هارغورد:

«الصمت والمهدوء أحسن الوسائل في مراقبة الطيور. يضاف اليها الصبر».

ثم قال لها بعد برهة:

«أنصتي الى هذا الطير الذي يرفرف... وهذه هي صيحة استغاثته لحظتها. أما في

الربيع خلال موسم التزاوج فيصدر منه صوت غنائي. وفي غير ذلك الموسم

يكون صوته كصوت التاي. وفي الوقت نفسه انه قلق يتضايق لأتفه الأشياء».

ثم وجه منظاره من خلال النقب في باب المخبأ وقال:

«ها هو لونه رمادي يميل الى اللون البني وصدره أفتح لوناً ومنقبط بنقطة بيضاء غيل

الى الرمادي. فهل عطين انك سوف تتعرفين عليه بنفسك في المرة المقبلة».

وحاولت مارييتا أن تميز الطير من بين غيره من الطيور التي كانت تظهر

حواله وتروح وتجيء غير الغدير. لكنها فشلت ثم قالت:

«انتي - حسناً - انتي...»

أما البروفيسور فلم يصدق. فقد كان متحزناً في فن مراقبة الطيور حتى أنه لم

يصدق أنها نجحت في التعرف على هذا الطير الذي يسألها عنه.

ثم سمعته يقول:

«والآن هل يمكنك رؤيته».

وفي تلك اللحظة أمكنها رؤيته فصاحت تقول باهتمام:

«نعم - نعم اني أراه الآن».

فوضع ذراعه حول كتفها عندما نظرت اليه ورأى في عينيها شبح الانتصار

لأنها تعرفت على الطير لأول مرة في حياتها.

ثم نظر هارغورد اليها وكانت حماسه تعادل حماسها. وعيناه ترفرف

كعينيها. ولده، تعلقه ابتسامة سعيدة. وكان تعبير وجهه لا يعكس العواطف

الأبوية أبداً. فأشاحت بوجهها وعلى محياها نظرة غامضة.

ومر الصباح ولكنه اقتصر على نجاعها في التعرف على هذا الطير فقط. ثم

قالت له وصوتها يقتصر الى الثقة:

«لذا كان في إمكاني أن أقرأ كتابه».

«كتب».

وبدا سعيداً باهتمامها. ثم أردف يقول:

«لدي الكثير من الكتب عن الطيور. سأختار لك أسهلها كبدية ثم ننتزج الى

الأكثر تعقيداً».

ثم استدار اليها وقال ثانية:

«أنا سعيد جداً لأهتامك بشاركتي حماسي».

وبعد شهر ذلك اليوم وجدها رايمان يجلس في غرفة الاستقبال غارقة بين

الكتب التي تعالج موضوع مراقبة الطيور. وكان البروفيسور قد رجع ثانية الى

مخبأ. ولم يشأ أن يرفقها. كما قال. بأن يصطحبها معه ثانية الى المخبأ.

ووجدت على غلاف أحد الكتب صورة بومة تبدو على وجهها الحكمة

والعزفة. بعينها الكبيرتين اللتين تنظران الى المرء وكأنها تلومه. وقالت لنفسها:

أراهن أنني لن أعرف على البومة اذا رأيتها فكيف يتمكن البروفيسور تيودور

من التعرف على أي طير بواسطة عينيه فقط؟

وكان رايمان قد نزل لتناول الشاي وضحك عندما رأى الكتب متناثرة

حولاً. وكانت ضحكته كلها سخرية.

وقال لها:

«أي منا يحاولين التأثير عليه؟ هل هو والذي بإظهار حماسك وتكرسك له أم أنا

بمحاولتك العزم على إظهار استعدادك للتعلم. وبهذا تكونين أهلاً لأن تكوني

صديقة بل أحد أفراد الأسرة».

ف نظرت اليه وقالت:

«أنا لا أحاول التأثير على أحد وخصوصاً أنت. وإلا كنت أقرأ كتاباً في الجيولوجيا.

أليس كذلك؟»

فاعتدل في جلسته وقال:

«إنك تغريتي بأن أحضر لك عدداً من الكتب عن وفوف مكتبي. وأفرسها عليك. وبعد فترة من الزمن أمتحنك فيها اكتسبت من معرفة جديدة».

جولوجيا: غشت من نظرها فلم تشأ أن يرى مدى اهتمامها بهذا الموضوع.

ثم سمعته يقول:

«فاذا فعلت هل يروق لك هذا؟»

ردت عليه بعدم اكتراث.

«تعطيني كتاباً في الجيولوجيا لأقرأها؟ أنتي أقرأ هذه الكتب وأدرس حياة الطيور لأرضي والدك».

«وهل معنى ذلك أنك لا تودين إرضائي؟»

«وهل هناك سبب لذلك؟»

ووقع نظرها على صورة نسر. ولكن حواسها كانت تلتقط الحركات السريعة وتوتر العضلات وغضب الرجل الذي كانت تكلمه.

ثم قرأت ماريتا عن النسر: لا شيء يمكن منافسته في دنيا الطيور بالنسر الذهبي من حيث العظمة والرفي. فهذا الطير القناص العظيم بجناحيه الكبيرين المتبسطين ينقض من السماء على فريسته بسرعة فائقة لا تصفق. وكأنها وقعت في كمين، ثم يأخذها ويأكلها.

ارتجفت ماريتا عندما تحرك رايلان، ومال على مقعده واسترخى كالطيور الكاسرة.

وفي أثناء العشاء أعلن هارفورد نيته دعوة أصدقائه من محبي مراقبة الطيور إلى منزله، على أن تبدأ هذه الدعوة باجتماع يليه تناول القهوة والتداول.

وقال في ذلك:

«سيكون عدداً حوالي خمسة عشر هارياً».

ثم نظر إلى ماريتا وعاد يقول:

«وسعدني يا عزيزتي أن تتنازلي وتلعبى دور المضيفة».

وبالرغم من أن العشاء كان في أوله شعرت ماريتا أنها فقدت شهيتها.

فوضعت على المائدة الشوكة والسكين ثم تناولت كوب الماء. ولكن الماء المثلج لم يغير ولم يهدئ من اضطرابها.

فاذا لعبت دور المضيفة معناه أنها تتساوى مع هذا الرجل. ومهما أمضت في منزله من وقت واندجيت في حياته العائلية فهو ما زال بالنسبة إليها في منزلة المثل العليا التي لا يمكن الوصول إليها. ثم ترحب بضيوفه وكأنها تنتمي إلى هذا البيت هي ماريتا نيوبيل مساعدة للمعلم الصغيرة كما يسميها ابنه الساخر؟ ثم قالت:

«ولكن يا بروفيسور - يا هارفورد - أنتي لا أصلح لاستقبال ضيوفك».

ثم قال رايلان:

«هل تشكين في حكم والدي يا ماريتا؟ وهل تقولين بطريقة ملتوية أنك لا تثقين في قدرته على تقدير قيمة الشخص. قوالدي عميد كلية في الجامعة ويلقو جميع العقول، وماهر لدرجة أنه يشعر بالذكاء الكامن في أعماق مجرد مخلوق ناله مثل مساعدة المعلم الشابة، ويرى فيها إمكانيات للتعليم لم تكتشف بعد».

ونظر من طرف عينيه إلى والده وكأنه يحاول أن يرى تأثير تحديه له. ونظرت ماريتا إلى الأب ثم إلى الابن. ورجعت قروناً إلى الوراء. وكان الرجلان اتهمكا في عداة عائلي مريرة لا هوادة فيه. لا ينتهي إلا بالمبارزة ثم الموت. ولكن من منهما سيفقد له البقاء؟ ومن منهما يخضع لسيف الآخر؟ لا يمكنها التنبؤ بذلك... ثم أعترتها رجفة.

والتهيت وجنتا البروفيسور ولم يكن ذلك من تأثير الشراب. ثم تجاهل إهانة ابنه كي يبعده عنه.

«يؤثني أن تقلل من قدرتك فإني سأشرف إذا وقفت بجانبتي ومعنى كي تستقبل ضيوبي».

يشرف؟ أن طيبة البروفيسور وكرمه وروحه السخية تدهشها ثم قالت له: «العكس هو الصحيح».

ولكن يده المرفوعة أسكتتها. وسمعت ابنه يقول ساخراً:

«يا إلهي انك تفللني من قبضتك».

وهذا يعني. كما ظنت ماريتا، وهي ترى النظرة الفلسفية في عينيه. أنها قطعاً تفلل نفسها في مستوى منخفض إذ هي تعد نفسها في مستوى أقل من مستوى والده.

«إذا كان رأيك في سبباً لهذه الدرجة، وإذا كنت تعتبرني تحت مستوى تدبيرك تذكر أنك ابني وأنت لا بد وارت بعض صفاتي السيئة».

وجاء رد هارفورد، بالرغم من أنه كان هادئاً، منطوياً على طعن وهجوم، وتعجبت ماريتا وهي تنظر إلى الأب ثم إلى الأبن: لماذا يكره كل منهما الآخر في هذا الجو؟ ولماذا يستخدماني كسلاح؟ ثم قالت له بحزم وبهجة التحدي:

«كم هو رائع أن ألعب دور المضيفة لك ويشرفني أن تطلب مني ذلك».

ظهر الحقد والغضب الجامح في عيني الأبن فقد انتقلت ماريتا إلى صفوف الأعداء.

وبعد العشاء خرج رايمان فسمعت ماريتا وهي جالسة في غرفة الاستقبال مع هارفورد صوت السيارة وهو يهبط، فشرعت بهجة مفاجئة من الميؤس والنعب جعلت عقلها يخبو وحواسها لا تستجيب. ومن العجب أن يرد هارفورد على سؤالها الذي لم تشأ أن تسأله:

«لا بد أنه ذاهب للقاء صديقته. فيها غالباً ما يلتقيان على موعد يحد من قبل. وكانت تسكن هذه المنطقة إلى أن وجدت وظيفة مدونة في المدينة المجاورة. وتعتبر آخر صديقة له من سلسلة صديقاته الكثيرات».

كان هارفورد يتكلم بغضب عن عدم وفاء ابنه لئسائه.

ثم قالت ماريتا:

«قال لي إنه يذهب في سبيل عمله إلى أماكن بعيدة».

«أنه قلق بطبيعته. ولذلك كان الفضل لعمله أن يهبط بتغيير الجو المحيط به وهو الشيء الذي يحتاج إليه كما يحتاج إلى التغيير الدائم في صحبته للنساء».

ثم نظر إلى ساعته ورجع يقول:

«أنا أشك في رجوعه قبل الساعات الأولى من الصباح وربما في الصباح».

ولامت نفسها لأنها تركت ذكر رايمان يفلتها لمرجعه أنه سيمضي الليل كله مع صديقته.

وسمعت هارفورد يقول:

«سأذهب إلى مخبئي يا ماريتا. فهل تأتئين معي لمراقبة تصرفات الطيور عندما يقترب المساء؟»

وأخذوا يشتركان في المراقبة معاً في الغابة بجانب الغدير. وكانت ماريتا تجد صعوبة في منع أفكارها من التساؤل عن رايمان وأين يكون الآن. كانت الصورة التي تخيلتها عنه وهو بين ذراعي صديقته تثير فيها الكره. فأخذت تتأمل مما جعل هارفورد يقول لها إنها حرة، فلماذا أرادت أن تغادر المخبئ وتنتجول في الأراضي المحيطة به يمكنها ذلك شرط ألا تنزع الطيور وتجعلها تنطير هاربة.

وكانت رائحة الليل وزهوره تعبق الجو خارج المخبئ ويروده تجعل ماريتا ترتجف وهي مرتدة ثوباً خفيفاً. ولذلك رجعت إلى المنزل ثوباً. وأثناء صعودها السلم كانت دقات قلبها تطغى على وقع أقدامها. وطرات لها فكرة. إن رايمان يهودي. في الخارج. وغرفة مكتبه خالية فلماذا لا تصعد إليها لترى المنظر المحيط بالمنزل منها؟

ودفعت الباب وتلقت حولها بخوف وكأنها تنتظر أن تجد شيئاً في الغرفة على الرغم من أن الغرفة كانت خالية شعرت بوجود صاحبها فيها فاهلها كله مثل شخصيته المعتدة بنفسها. وبقسوته وجاذبيته ورجولته، وتناهي كذلك بشغافته. فالرفوف تمتلئ بالكتب العلمية وعلى مكتبه تناثرت الأوراق التي دون فيها ملحوظاته. وأخذت ماريتا منظره وعلقته في كتفها حتى تؤمن سلامته ثم قامت لترتكز على الشاذة وتصوب المنظار نحو الخط الذي يحد البحر لكنها وجدت أن البحر اختفى وراء الأفق.

ورأت تحتها عن قرب الغابة بجانب الغدير. وفي مكان ما بين الأشجار كان

البروفيسور يراقب الطيور، ثم سمعت وقع أقدام قوية على السلم تدلّ على أن صاحبها رجل. وأنه يقصد من غير شك غرفة المكتب، فليس في الدور العلوي حجرات غيرها. تجمّدت ماريّتا وحبت أنفاسها. هل هو هارزورده جاء يبحث عنها؟ لا شك أنه ليس ابنه. واستدارت بقوة عندما فتح الباب وسمع النور. أما المنظر الذي كانت تعلقه في كتفها فقد ارتفع في الهواء ثم اصطدم بالميكروسكوب المصوّر على المنضدة وعند اصطدامه بصوت رهيب سقطت إحدى الشرائح الزجاجية الصغيرة التي تستعمل في التجارب على الأرض وتفتت، ثم سمعت ماريّتا صوت ارتطام فالتفتت وهي لا تقوى على التنفس لترى الكاميرا التي كانت مربوطة على رأس الجهاز تسقط على المنضدة. فالمنظر في حركته القوية مرقق الأربطة التي تربط الكاميرا بالميكروسكوب وجعلها تهوي...

ولم تقو على مواجهة نظرات صاحب الغرفة أو غضبه. فرأت في عينيه غضباً ملتهباً. نظرت عيناه إليها أولاً ثم إلى المنظر ثم إلى التلف الذي سببته. وبعد ذلك بردت نظراته وأصبحت في درجة الحرارة التي تسبب حروق الصفيح. وأطلق السباب الذي جعل ماريّتا تخاف وترتعد، ثم عبر الغرفة إلى المنضدة التي وضع فوقها الميكروسكوب المصوّر والتفتت الكاميرا ولما أخذ يفحصها وينظر إليها لم تقو ماريّتا على التحرك وجف ريقها وتشابهت يداها في بأس وضعف تنفسها.

«نعم، إنها تلفت ولا بدّ من إصلاحها».

ثم التفت إليها فتراجعت تحت تأثير نبرات صوته التي تشبه السوط وأردف يقول:

«ومن حسن حظك هناك متجر في البلدة يمكنه أن يمدنا بالجزء الناقص ولكن سوف يكون ذلك سبباً في تأخير عملي بضعة أيام».

فهمست تقول:

«شريحة الزجاج كسرت».

ثم انحنت تجمع القطع المتناثرة لكنه نهىها قائلاً:

«اتركيها، فلن ينالك إلا جرح يدك وسوف يصبّ والذي غضبه عليّ، وأنا أكره أن يتهمني بأنني كنت السبب في جرح مساعدته الصغيرة».

فقالت:

«أنتي - أنتي أسفة. فلم أتسبب في ذلك عن عمد. وعادة أكون حريصة جداً في تناول الأجهزة التي أستعملها بكثرة في عملي. كانت حادثة مفاجئة غير متوقعة».

فرد بنشونة يقول:

«كل الحوادث غير متوقعة. ولكن كان يجب أن تقدرتي فأنت على مستوى أعلى من الفئة المتوسطة الذكاء. أليس كذلك؟»

وكبرت سماع صوته الغاضب فارتفع صوتها مع الدم الذي صعد إلى وجهها وقالت:

«لم ألس الكاميرا أبداً بل كان المنظر».

«بل الذنب هو التجسس على العمل الذي أقوم به. وجودك هنا بدون إذن وذلك واضح من الطريقة التي استندت بها لدى دخولي».

فردت تقول:

«أعترف بخطأي. وكان يجب عليّ أن أستأذن أولاً في الدخول لكنك كنت في الخارج... لم أجد جس على عملي أبداً، فكيف تتهمني بهذا الأمر الخطير؟»

«لأن هذا التجسس يحدث كل يوم. ويسمى التجسس الصناعي ومن يدري فقد يكون تحت تصرفك البريء الذي يبدو عليك، انتباهك إلى شبكة من التجسس الصناعي. أنا أعمل في شركة تفرص على المعلومات التي يجمعها موظفوها ويبيعها سرّاً خاصة بها».

«أنا أسفة لأنك لا تحسن ظنك يا خلاصي. وتعتقد أنني ذئبة أقوم باقتناء أسرارك التي، حتى إن قدر لي أن أراها، فلن أفهمها. وأسفة للتلف فسوف أدفع ثمنه. وعندما تعرف التكاليف أخبرني بها حتى أكتب لك شيكاً بالمبلغ».

فنظر إليها لفترة طويلة وقال:

«أه لو تعرفين القيمة العالية لهذا الجهاز وهو يخص الشركة التي أعمل فيها».

رفعت رأسها محدياً وقالت:

«مهما بلغ المبلغ لاصلاحها ما زلت أصبر على تسديده... وأنا أسفة لدخولي هنا بدون دعوة. قال لي والدك انك ستغيب هذه الليلة لمدة طويلة وقال لي كذلك انك ستقابل صديقك قريباً لن ترجع قبل الصباح».

«لم يعطك والسدي معلومات صحيحة، ذهبت الى الحانسة لأستأول مشروب».

لاحظت مارينا أنه يرتدي ملابس عادية وكان ينظرونه القديم ذو القماش السميك بضاعف من رجولته فيجعله يختلف عن ذلك الرجل الناعم المهتم الذي وأنه لأول مرة وكان من الجلي أن له شخصيتين مختلفتين، الأولى تخص الرجل صاحب المربى الكبير والثقافة العالية والتعليم الممتاز، والثانية تخص الجيولوجي الخبير في فرعه والذي يلى أوامره ويرأس العمل في الظروف الناسية والصعبة، ويعيش حياة قاسية ثم يلقي وقته في ملاذاته كلها وجدها:

نظر اليها وقال:

«واذا كنت قد أمضيت طول الليل في الخارج فهل كان يقلقك ذلك؟»

فاندشت لهذا السؤال وردت عليه تقول:

«يقلقني؟ وما السبب؟»

«ألا يزعجك هذا التصرف المعيب من ابن صديقك؟»

«يزعجني؟ لا ولا حتى يدهشني أن مثل هذا التصرف هو ما أنتظره منك».

«وما هو الأساس الذي بنيت عليه هذا الحكم؟»

فهزت كتفيها وقالت:

«بينه على ما قلته لي عن نفسك، وعلى ما أعرفه عنك».

فقال ساخراً:

«انك تعرفيني جيداً وكأنك تعرفيني من زمن طويل».

وضايقها هذا التهكم ولكنها لم تأبه له. ثم قالت:

«زمن طويل يجعلني أبني حكماً عليك. وإن أحدث ببعض حكمك على النساء».

ثم خلع سترته والفاها جانباً، واتكأ على المكتب واضعاً يديه في جيوبه ينظرونه

ووضع ساقاً فوق الأخرى. وقال:

«وخيل اليك على سبيل المثال اني انظر اليهن كأهمية ثانوية في حياتي وكشيء مسلي عندما يحتاج اليهن - كما يحتاج اليهن الرجال عادة - وكشيء مثير عندما أنظر اليهن».

وبدا في عينيه يريق يسخر منها ثم أكمل كلامه يقول:

«واني استخدمهن وأحياناً لا أحسن استخدامهن وعندما يعترضن على معاملتي القاسية لهن، اتقيهن جانباً وأبحث عن غيرهن ليحللن مكان الأخرى التي ذهبت».

وسبت لما كلمته الاستمزاز وفي الوقت نفسه أثارتها فشعرت بتحريك عواطفها ورغباتها، وخيل اليها أن هذا الرجل أصبح كابرة الدواء، يدخل تحت جلدها ويسري في جسمها ويسبح مع دمها في الشرايين، فأغضت عينها لبرهة حتى تتفادى النظر الى جاذبيته. ثم سمعته يضحك فغضبت ثم استدارت لتنظر من النافذة.

ثم قالت وصوتها يبدو غريباً.

«كان ما أريد عمله هو أن أطل من النافذة لأتخج بالمنظر وهذا سبب قدومي الى هنا».

ثم أطفأ رايان التور وجاء ليقف بجانبها عند النافذة فتأكدت انه تعدد أن تلمس ذراعه ذراعها وحتى لما ابتعدت عنه قليلاً حرص أن يقترب حتى يتلامسا أكثر فعضت على شفتيها وشعرت انها تود البكاء وقالت في نفسها: كفى عن ذلك، كفى عن تعذيبي فاني لست من ذلك الصنف من النساء. ألا تلاحظ ذلك...

ثم سمعته يمس ويقول:

«انظري! المنظر اخفى فانسدل الستار عليه وأخفاء ولم يبق شيء. كما أن الافق قد راح».

وأكمل يقول بصوت منخفض:

«شعوري بالحيرة ذهب كذلك».

وسكت ثم شعرت وهو يقترب منها أكثر ويقول:

«لا تهتسي بذلك. فعندما يأتي الصباح سوف تعود حريتي معك».

ونظر اليها ورفعت عينها اليه فها لمّا أن تجد وجهه قريباً منها. ثم أردف

يقول:

«كالذي يخضع لمفاتيح المرأة أثناء الليل ثم يتركها ويحضي في الصباح».

ثم قالت بمرارة وهي تبحث في الظلام عن الباب فلم يتبعها.

«تعود الى حريتك».

فقال يردد بسخرية:

«الى حريتي».

٤- لعنة البومة

نزلت ماريتا للافطار في اليوم التالي فوجدت مكان هارفورده خالياً وأدواته مستعملة. فأسرعت في تناول طعام الافطار حتى تتلاقى رؤية رايان، ولكنه دخل قبل أن تنتهي من الطعام. نظر اليها وابتمس بسخرية عند رؤية ينطلقها الضيق المصنوع من القماش السميك، والبلوزة ذات العنق المفتوح. ثم جلس على مقعده ولم يلتفت اليها وكأنه أبعدا كلية عن فكره.

وكان يرتدي ملابس عادية هذه المرة أيضاً ودخلت السيدة فيسك بخطوات سريعة قوية. وأمسكت بقطعة من القماش لتحسي بدعا من الحرارة وأمسكت بصحن فيه لحم وبيض وضعت أمام رايان، فابتسم لها ابتسامة غريبة.

ولما غادرت السيدة فيسك الحجرة حوّل ابتسامته الى ماريتا، لكن العذوبة تحولت الى سخرية، وظل يلزم الصمت. فهل كان يمتحنها ليعرف مدى تحملها لصمته؟ ثم تناول الجريدة عن مقعد والده وطواها وراح يقرأ جزءاً من الصفحة الاولى. ثم غاب في القراءة عن العالم. وصمدت كي تتحمل ابتسامته الانتصار التي لاشك سوف يصورها اليها. وقصدت الباب ورأسها مرفوع ثم خرجت وأغلقت الباب ورادها وبقيت في البهو. فاليهو بمساحته الكبيرة له تأثير دائم عليها يسبقه العالي وجدرانها المنقوشة. ورأس الوعل المحتض المعلق فوق باب مدخل المنزل وشعار العائلة المحفور في السقف. وكانت كلماته باللغة اللاتينية

فساءلت بفصول عن معناها ثم خرج هارفورد من مكتبه ووقف بجانبها ووضع يده على كتفها، وفي تلك اللحظة فتح الباب وخرج رايان من غرفة الطعام ولكن يد هارفورد بقيت كما هي، فمشى رايان إلى المنضدة الطويلة المصنوعة من خشب البسوط والنقطة إحدى المجلات ثم التفتت ماريتا نحوه خلسة، ورأت على غلاف المجلة صور طير فارداً جناحيه، وكانت إحدى مجلات هارفورد التي تعالج مراقبة الطيور فتعجبت لقراءة رايان لها.

ثم قال البروفيسور ثيودور:
«سأذهب هذا المساء إلى مخزن كبير يقع تجاه الحديقة الكبيرة على الجهة الأخرى من أرضنا ويسكنه بومة من النوع الذي يسكن المخازن الكبيرة، وأتسى من زمن طويل أن أسورها، فهل لك أن تأتي معي، إذ ربما وجدناها فتشاهدنها»
فسألت ماريتا:
«صورة في الظلام»

وهنا سمعت رايان يرد بدلاً من والده ويقول:
«صورة الكترونية بالكشاف القوي»
فقلت ماريتا وهي تتجاهل الابن:
«نعم أود أن أتي معك»

فضغط بيده التي كانت ملتزلة على كتفها لسعادته وقال:
«حسناً»

ثم أخذت يده تربت عليها وقال:
«سنذهب بعد العشاء معاً»

تعلقت نظراتها بنظرته فرأت فيها برزخاً غريباً، وكانت تشعر شعوراً خفياً بأنه ينظر إليها ولا يراها، وخيل إليها أن نظره يخترقها وكأنها شبح، ولكنها عندما ابتسمت له كانت ابتسامته دافئة وبها شيء من الحفاوة ثم قال:
«سيطلب لي وجود من يؤنسني، فقد مللت الوحدة»

وشعرت ماريتا أن نظر رايان يقع عليها، ثم رجع هارفورد إلى مكتبه ثانية، وأغلق الباب، ونفقت ماريتا الشعور بالذنب الذي حط عليها

كالطير ثم قصدت السلم مارة برايان في طريقها، لكنه ألقى بالمجلة جانباً وبذ يده وأمسك بها، فأرادت أن تتخلص منه غير أن الأصابع التي كانت تمسك بها بخفة غاصت في ذراعها بقسوة، إذ كانت يد إنسان غاضب، ففالت له وهي تتألم وتحاول أن تداري الألم:
«ماذا تريد»

«التقت مع والدي على موعد»
فالتفت وجنتاها وقالت:

«لا تكن سخيلاً... لا شيء سوى اتفاق كمي أذهب معه عندما يصور البومة»
«أتذهبن إلى المخزن في جح الظلام»

«عقلك لا يرتقي أكثر من عقل خادم غريب... لا تظلم أحداً وخصوصاً والدك ولا تقص تصرفه بتصرفاتك الدينية»

«أشكرك على رأيك في مبادئ أخلاقي، وبالرغم من نفاق والدي فإنه إنسان، وهو رجل لم يتعد الحسنيين من عمره إلا قليلاً وبذلك لا يعتبر في هذه الأيام، كبير السن، كما أنه بصحة جيدة ونشط ويمكنه إقامة علاقات مع امرأة إذا أراد ذلك»
التفت وجنتاها وارتفعت يدها في محاولة يائسة لتضرب راس اليد التي مازالت تقبض على يدها ولكن كان ذلك بدون فائدة، وبقيت أصابعه نفوس في يدها بشدة.

وقفزت الدموع إلى عينيها ثم قالت:
«أرجوك دعني أذهب فإني تؤلني»

ولكن كانت وهي تحاطبه كأنها تحاطب حجراً أصم، ولم تؤثر فيه توسلاتها ثم قال لها:

«يها أنك التقت مع والدي على موعد هذه الليلة، فإني أقدم لك دعوة لبعده ظهر هذا اليوم»

فردت تقول:

«لا، شكراً، أنتي...»

«أنا ذاهب إلى نورويتش ومعني تلك الكاميرا التي تسببت في كسرها للعثور

على قطع الغيار اللازمة فهل تأتين معي؟»

«الكاميرا التي تسييت في كسرها» أراد أن يذكرها بمهارة في تلك اللحظة التي لم تنتبه فيها وأثلثت قطعة هامة من أحد الأجهزة عندما افتحت مكتبه بدون دعوة.

وكانت وخزة الذنب التي شعرت بها إلى جانب الألم من ضغط أصابعه التي لا ترحم، كلها مجتمعة غلب عليها الموافقة. ثم خفف من الضغط لكنها تأثرت كثيراً من بريق الانتصار الذي بدا في عينيه. وكانت تفضل أن تشعر بالألم وحده. ثم صعدت السلم هاربة منه.

وبعد أن مشطت شعرها ولوثت وجهها بما كياج خفيف وغسلت يديها، سمعت التليفون يرن في مكان ما بالمنزل.

وبما أن الوقت كان قرب الغداء، فكرت ماريتا أن تنزل إلى الدور الأول. وفتحت باب غرفتها وسارت إلى رأس السلم... لا بد أن المكالمة التليفونية كانت تخص رايمان لأنه كان يتكلم ويضحك في اليوم.

بقيت ماريتا مترددة في النزول وسمعته يقول: «لا يمكن أن أعدك يا دورين فساكون مشغولاً. تلولين امرأة أخرى؟ يا حلوة، أن الألوان أن تعلمي شيئاً عن حقائق حياتي، فلدي امرأة تحت أمري في كل ركن من أركان العالم. إذا أردت أن التقي بامرأة فما علي سوى أن أرفع ساعة التليفون... تلولين إن هذا ادعاء؟ لا بل هو الحقيقة المجردة».

بدت من ماريتا حركة لا شعورية سمعها رايمان فرفع رأسه إلى أعلى ورأها وقد بدت في عينيه نظرة متوترة. فاستدارت ورجعت إلى غرفتها.

جلست على السرير وانتظرت ثم قامت تتجول في الغرفة ولكن لما سمعت ناقوس الطعام لم تتأخر عن النزول.

وكان رايمان مازال مسكاً بساعة التليفون، فنزلت درجات السلم ورأسها مرفوع وعيناها تنقاديان النظرة رايمان وهو مسترخ على المقعد ويتسم لشيء. فأنه له المرأة على الجهة الأخرى من المخط.

وسمع البروفيسور، لأول مرة، رايان في المخرج مع ماريتا قبيل

انتهاء العشاء. فلم يسرَ لذلك وتعجبت ماريتا لسلاطته المنطوية على الحراك الحقيقي والموجه إلى ابنته:

«لماذا تدعوها معك؟»

«ولم لا؟»

واحتار البروفيسور وحاول أن يجيب جواباً مقنعاً يرد به على ابنته فأخذت عيناه تدوران في الغرفة وكأنه ينتظر من الأثاث أن يمدده بالرد وقال:

«أنا ساكون في المخيا، وماريتا يسرها ويسعدنا أن نقرأ الكتب التي أعزها إياها عن مراقبة الطيور، فإذا كان اهتمامها في هذا المجال سيبقى عميقاً - كما أفتى - أمامها الكثير من العمل الذي لا بد أن تنجزه».

قال رايمان بعدم اهتمام وهو يقوم من مقعده.

«هي واظقت على ذلك - تعالي يا ماريتا».

نظرت ماريتا إلى البروفيسور على الفور فرأته في سبيل أن يقول شيئاً، وغالباً ما كان ينوي الاعتراض، وسأته قائلة:

«هل لديك مانع يا هارلورد إذا كنت؟»

فقام هارلورد وقال:

«أذهبي معي يا ماريتا لترى نورويتش فلا يوجد في القرية سوى محلات معدودة لا تتناسب مع ذوق أحد».

نظرت إلى ملابسها ثم إلى رايمان وقالت:

«لا بد أن أذهب للاستعداد».

أوقف رايمان سيارته في المدينة، واكتشفا أنه يوم السوق وسألها قائلاً:

«ماذا تفعلين؟ هل تودين زيارة معالم البلاد أم تتسوقين في المحلات؟ فهناك

الكاتدرائية...»

وأخذ يعد على أصابعه...

«ويرجع تاريخها إلى أيام النورمانديين في القرن الخامس عشر، ولما برج يعد ثاني أبراج انكلترا علواً... ثم تجدن مدرسة القرية من القرن الرابع عشر حيث كان اللورد نيلسون طالباً، وبجانب السوق تقوم دار الحكومة ويرجع تاريخها إلى

القرن الخامس عشر. ثم يجب ذكر قلعة نورويتش التي بناها النورمانديين والتي أصبح جزء منها متحفاً الآن. ثم دار الغرياء. وقد سميت بذلك تكريماً للوافدين الفلامينغ الذين أتوا ليستوطنوا المنطقة في القرن السادس عشر. وأضاف:

«أحبها مختارين، إذ سوف تكونين وحدك فالمحل الذي سأخذ الكاميرا إليه يقع في شارع جانبي. ولن أقرر الوقت الذي سوف أمضيه هناك»

قالت:
«أظن أنني سأستغني عن زيارة معالم المدينة هذه المرة. فلن تروق لي وأنا بفردى».

«إذن تفضلين الذهاب إلى السوق؟»
فهزت رأسها موافقة ثم قال لها وهو يقبض على ذراعها:
«سأوصلك إليه وأمكنني هناك أن أرجع إليك. فأجول في السوق إلى أن أجده».

وعندما وصلا إلى السوق قالت له:
«في السوق الكثير من الناس فكيف ستجدي؟»
«أعرف كيف أجد الفتاة التي فتلك شعراً لونه بلون شعري، وبالي خصائصها لا تنسى بسهولة»
وابتسم لها ثم ذهب واختفى بين الناس بعد أن قال لها:
«دعني بوقتك».

وقبل أن تتخذ ماريئا طريقها بين الناس الذين كانوا يساومون أمام البضائع، قصدت الشوارع الضيقة المرصوفة بقطع الحجارة الصغيرة، وتجولت فيها فمرت بالمنازل الفخمة ونظرت إلى الممرات الضيقة التي تصب في الطريق الرئيسي ورأت الأثاث القديم ومعارض الفنون. ومرت بأماكن المحميات التي ظنت أنها تحتوي على آثار من تاريخ المدينة القديمة.

وكان الناس يشررون والموسيقى تعزف، وكانت أقسام الفاكهة تعبق الجو برائحة الفاكهة الخاصة بها، بعضها ذكي وبعضها غريب. أما الزهور لمألأت

المكان بألوانها الزاهية التي تجذب النظر.

ثم سمعت ماريئا صوتاً بجانبها يقول:

«من الغريب أن تشترك، على الأقل، في شيء واحد. وهولون شعر كل منا»
فشعرت بالترتد وحبت أنفسها. فقد عاد رايمان وكانت يدها خاليتين، وأمكنه أن يقرأ أفكارها فقال:

«التاجر الذي قصده نقتد من محله تلك التظعة الهامة التي طلبتها»
«لأن سوف تبقى إلى أن تحضر الكاميرا. أنني أسفة لأنني سببت لك كل هذه المتاعب»

فقال ينهكم ولو أن ماريئا استشفت وراء نوعاً من القسوة:
«أقننى أن يحسم وزرك بشدة على كنفليك الرشيقتين. فهذا الأخير يسبب لي الكثير من المتاعب»

ومشى بجانبها بلفت نظرها إلى ما تحويه أقسام السوق من بضائع. وقال لها إنها يشتركان في هواية واحدة وهي زحام السوق. واستطرد:
«ويمكننا أن نبني علاقة على هذه الحديقة»
فردت ببرود على كلامه قائلة:

«لا أرى أي داعٍ لتحاول أن تبني أي نوع من العلاقات. فأنتي هنا ضيفة صديقة لوالدك. وعندما أرجع إلى بيتي بعد انقضاء الزيارة لن أرى أي سبب كي نتقابل ثانية»

وفجأة وبدون إنذار استدار لمواجهتها وسد الطريق أمامها وترك الناس يلقون حولها. ونظر إليها وقد ضاقت عيناه ثم قال:
«أنتك لن تستطيعي ذلك»

فأجتاحها الغضب الجامح فجأة وقالت:
«هل لك أن تتركتني وحدي؟»
وكانت جماعات الناس التي تمر بجانبها تبسم وتقول لنفسها «هذا عراك المحيين». رجع رايمان إلى مكانه بجانبها واستمر في السير.

«لا، إني لا أريد أن أتركك وحدك»

قالت والكلمات تخرج من بين أسنانها.

«أناك تسبب لي الاشتزاز»

ولكنها ندمت على حماقتها، فهو ابن مضيئها وليس لها الحق في مخاطبتها بهذه الطريقة، وهو يكاد يكون غريباً عنها، إذ لم تعرفه إلا منذ وقت قصير. وكان لقطيبه وعبوسه قد أجبرها على الاعتذار له فقبل الاعتذار بهز كتفيه بلا مبالاة. ثم نظرت إليه قرأت شعره النبي وخصلة منه تنزل إلى أن تصل إلى أحد حاجبيه، وأتفه الأرستقراطي وقمه الواسع وشفتيه المكتنزتين، لكنها غضت من بصرها عندما قابلت نظره الساخرة الغريبة.

وطافت برأسها فكرة تقلقها وتقول لها: «أنا لا شعرتين بالاشتزاز منه لأنه يتمتع بصفات لا تنفر لهنالك ذكائه اللامع، ونظرة عينيه تدل على الاستقلال والاعتماد على النفس...

ولكني تخفي عن نفسها اضطراب أفكارها أطالت مارييتا الوقوف بجانب أحد المحلات بالسوق، وراحت تلمس الملابس المروسة وتفحص شالاً من الصوف أبيض مشغولاً باليد بقرزات معقدة جميلة الصنع، خفيفاً، رقيقاً كتسيج العنكبوت، وتحملت نفسها تضعه على كتفها عندما يبرد الجو في المساء. وعندما سألت البائعة عن ثمنه وعرفت ارتفاع سعره أعادته إلى مكانه وهي تنتهد بحسرة. واستمرت مارييتا في تجوالها، وكانت تسبق رايان بمسافة طويلة ولكن هذا لم يضايقه وتساوت لماذا هي دائمة الخلاف مع ذلك الرجل؟ ألا يمكنها الوفاق معه في أي شيء؟

ولم تجد رايان بجانبها، فهل أغضبته حتى أنه تركها ورجع إلى منزله لكنها شعرت بيد على كتفها جعلتها تقف ساكنة.

ثم قال لها:

«إن فتجاناً من القهوة قد يصلح مزاجك...»

فقالت:

«لا أريد القهوة، وشكراً لك»

وكانا يقفان بجانب قسم المرطبات. وكان البخار يخرج من المياه الساخنة.

فأمسك رايان برسغها وجذبها نحو المحل، وقال للساقية:

«تريد قهوة لائتين واثنتين من هذه الأشياء المحسوة بالكريمة»

فقالت المرأة البدينة وهي تبسم له وتدل طبعها على أنها من هذه المنطقة: «إكلير بالشوكولاته، أنها لذيذة»

وكانت مارييتا تنوي رفض الحلوى ولكن إذا قالت «لا وشكراً لك» غضبت صاحبة المحل اللطيفة التي تعتر كثيراً بما أنتجته يداها.

وقالت مارييتا وهي تنظر في كيس النقود لتخرج العملة الصغيرة: «سأدفع ثمن طيب»

فرد يقول:

«تأخرت لأني دفعت الثمن»

ثم رفع فتجانته عالياً وتتم يقول:

«في نخب علاقتنا المستقبل»

ثم رشف القهوة ونظر إليها بتمعن وأردف يقول:

«مهما كان شكلها»

ولكن مارييتا ردت تقول:

«ليست لدي النية كي أقيم أي علاقات معك في المستقبل»

فضحك رايان وهو يعطيها قطعة الحلوى الثانية، التي قبلتها بعد قنن ولكنها لم تحسن أكلها، فقد وجدت الكريمة طريقتها إلى جانبي فمها وذقتها وقال لها رايان ساخراً:

«لست معتادة على الحشونة»

«وهل انت معتاد على ذلك؟»

«بكل تأكيد. قلت لك إن العالم بأسره هو مسكني فعتت معتاداً على الحشونة»
وحاولت مارييتا أن تجد مديلتها لتنظف بقايا الحلوى ولكنها لم تجده فقال لها:

«هناك كريمة على ذئلك»

وقبل أن تكتشف ما يرمي إليه وتعرف نيته، كانت يده تمسك رأسها من

الحلف وقد بدأ ينظف وجهها.

وسمعت صوتاً يقول:

«رايان يا حبيبي»

فكفت اليد التي كانت تمسك بالمتدبل عن الحركة. ثم استمرت في عملية تنظيف وجه مارييتا. ولكن مارييتا استدارت لترى الفتاة القادمة.

وضع رايان المتدبل في جيبه وأبقى يده فيه. ولم يبد أي ترحيب بكلام الفتاة القادمة.

قالت الفتاة وهي تنظر بغضول الى مارييتا:

«لقد خنت أن أجدك هنا، يا حبيبي، من هي صديقك يا رايان؟»

فرد عليها يقول باقتضاب:

«قلت لك على التليفون أنني سأكون مشغولاً»

«فدعني لصديقك يا حبيبي»

فهز رايان رأسه بدون مبالاة:

«يا مارييتا أقدم لك دورين فوستر وهي صديقة لي. يا دورين هذه هي مارييتا نيوبيل»

ثم نظر الى مارييتا بطرف عينيهِ وقال:

«وهي صديقة وزميلة - زميلة صغيرة جداً - لوالدي»

تعجبت مارييتا من وصفه لها. هل كان في نيته أن يستهين بها أمام حبيبته؟ ولما ذلك في نظره لما فعمرت أن فلها هو الحقيقة. اذن فسوف تريجه من وجودها المخرج. فيمكن أن يبقى مع صديقته وحدها وهنا قالت:

«لو كنت أعرف أنك ربيت لقاء مع الأنسة فوستر اليوم لكنت أحجمت عن الحضور معك»

ثم نظرت الى ساعتها وقالت:

«أرجو أن تأذن لي يا دكتور تيودور بالانصراف فسأجد محطة الأوتوبيس وأرجع الى والدك»

فعبست دورين. ثم ابتسمت وقالت:

«دكتور تيودور - رايان؟ لماذا تتكلم بطريقة رسمية؟ اذا كانت صديقة للعائلة»
رد رايان يقول:

«صديقة لوالدي. وليسب ما تعتبر الأنسة نيوبيل نفسها أعلى درجة واحدة فقط في السلم العلمي من المرأة التي تقدم الشاي في المعمل، الذي هو في الوقت نفسه مكان عمل والدي وهي تعتبر نفسها في مستوى ذكاء متخلف فلا تنظر لنفسها وكأنها في مستوانا»

هبت مارييتا وافتقت فكفها ما قاله رايان. ولكنه أمسك يدها وقال:

«سترجعين معي»

ولكن مارييتا خلصت يدها بقوة بدون أن تأبه بالألم الحارق الذي سينه أصابع رايان على جلدها. وجرت نحو الجمع وتاهت بين قلوبهم الضاحكة. سمعت مارييتا رايان وهو يلقي عليها سؤاله بينما كانت تنظر الى صورة معلقة في غرفة الطعام:

«لماذا لم تنتظريتي»

وكان هارغورد لم يظهر بعد.

فردت تقول:

«وجودي لم يكن مرغوباً فيه. فعلت الشيء اللائق الوحيد. تركتك حتى تنعم بصحبة الأنسة فوستر بدون الاحراج لوجود شخص ثالث. لو أخبرتي أنك ستلاقي صديقك...»

«ولكني لم أرتب اللقاء بصديقتي»

«سمعنا تكلمها بالتليفون»

«لا بد أنك سمعتني أقول لها سأكون مشغولاً وكنت أقصد أن أقول لها إنني لن اتمكن من رؤيتها. ومن الجلي أنها ظنت بي الظنون فصمت أن تبعني. وما هي قد نجحت في ذلك. ولكن كيف رجعت الى هنا؟»

«رجعت في الأوتوبيس»

وأخرج رزمة من جيبه وأردف يقول:

«لو لم تهربي كنت سأعطيك هذه الرزمة في رحلة عودتنا»

ولكنها ترددت في أخذها فقال لها:

«هيا خذها. فإذا كان أبي يعطيك هدايا فلم لا أعطيك أنا أيضاً؟ وعلى كل حال هذه هي طبيعة العائلة.»

ولكنها وقفت وبداها مسبلتان وقالت:

«ولكن المنظار لم يكن هدية فهو يعيتني حين أذهب لمراقبة الطيور مع والدك؟»
«انه هدية لا أكثر ولا أقل.»

فتحت الرزمة ورأت الهدية فوجدتها الشال الصوف الذي أطالت إليه النظر في السوق. إذن هذا ما كان يفعله عندما اختفى لفترة وغاب من جانبها. كان يشتري لها. وسألت نفسها لماذا؟

ثم قال:

«لا تنجراي ولجاولي أن ترجعه لي ثانية. فإذا فعلت فسأستعمله لحقنك.»

ثم اقترب منها ورفع يديه الى عنقها

فتراجعت ماريئا الى الوراء. لا خوفاً من تهديده ولكن خوفاً من لمسائه. ثم هزت رأسها وقالت:

«انه جميل ولطيف منك أن تهديه لي واني اقدر ذلك جداً. ثم فتح الباب ودخل هارفورد ورأت عيناه الصورة بأكملها وكان من الجلي أن هذه الصورة لم تعجبه.

تقدم رايمان الى سيفتها، وأخذ الشال وفرده ثم وضعه على كتفها. وكان ثوبها عاري الكتفين تشعرت بالشال الدانتيل يلامس جلدها. فرفعت عينها الى رايمان لتجد فيها السخريه.

وبعد أن وضع رايمان الشال على كتفي ماريئا بالطريقة التي أرسته أبقي يديه على ذراعيها وأخذ يذلها بأنهامه في رقة. فلم تتحرك من مكانها. قصد هارفورد المائدة وشعرت ماريئا أن السحر الذي شملها به رايمان زال فتحوّل نظرها الى هارفورد في شيء من الشعور بالذنب ولكن لماذا؟ إنها لم ترتكب ذنباً؛ فكل ما فعلته أنها قبلت هدية ابنه.

وبدا هارفورد شاحباً وشفتاه اللتان ظهرتا فوق لحيته مزموستان. ودفعتهما

الشقة كي تذهب اليه وتفسر له كل شيء.

وعندما فرقا من العشاء قال هارفورد لماريئا وهو ينظر الى صندوقها: «يجب أن تغيري ملابسك وأن تتعدي حذاء سميكاً للشي. وترتدي ملابس تناسب ظروف المخزن.»

وأضاف ابنه قائلاً وهو يتسم:

«وتضعي على رأسك شالاً حتى تعدي الحفايش عن الوصول الى شعره»

ثم ضحك عالياً عندما رأى نظرة الخوف التي بدت على وجهها.

فرد عليه والده بشدة:

«كف عن إخافتها يا رايمان. فأنت تعرف جيداً أن هذا ليس صحيحاً.»

فهز رايمان كتفيه وتركها.

بدلت ماريئا ملابسها، وأردت سترة زرقاء سمكية وبطلونا من اللباس الجينز وسترة بيضاء برقبة عالية. وسارت مع هارفورد مخترة الحقول بخطوات حذرة لعدم استقامة الأرض وطراوتها قبل بذر الحبوب.

وفجأة قال البروفيسور:

«أنصتي الى هذا الصوت الحشن.»

فسمعت ماريئا أصوات الطيور وخفقتان أجنحتها حولها، ثم خفت هذه الاصوات عندما ذهبت الطيور في طريقها نحو المنزل.

وأخبرها هارفورد بأسانها. وقال:

«انها كانت تعرف باسم طيور الشيطان والسبب هو ذلك الصوت والضجيج الذي تحدثه في ليالي الصيف.»

وبدا المخزن قديماً بنيت جدرانه من الصخر والطين. والمدخل لا باب له. والنوافذ عبارة عن فتحات مستطيلة. وسقفه منحدر مصنوع من الفرميد.

ورفع البروفيسور عينيه عند سماعه زقزقة الطيور فوق رأسه وأشار بيده الى الطير وهو يسميه لها. وقال وهو يتسم لماريئا:

«انه يبنى عشه من الطين تحت زوايا إفريز المنازل والمخازن.»

ثم أردف يقول:

«هذه الطيور تعاني من الكثرة كلما تقدم بها الموسم. فمرة أمكنني أن أجد ثلاثة منها متكدة في عش واحد. وهذا الميل إلى التكدس تشترك فيه الطيور مع عادات الإنسان»

ونظرت ماريتا إلى المخزن فوجدت أنه يتطلب منها الشجاعة كي تدخل هذا المكان المعتم المجهول لديها. ولما اقتربا من المدخل قبض هارفورد على ذراعها، وأجبرها على الوقوف.

وكانت الشمس في طريقها إلى الغروب عندما رأت فوق رأسها شيئاً مثل الشبح الأبيض، يرفرف بجناحيه ويبحث عن الطعام. وكان لون الريش في ظهره متظلاً بنقط ذهبية، أما ريش وجهه وبطنه فكان أبيض ناصعاً. ولم يحوم، بل بقي في الجوّ ثم اقتضى على فريسته. ولم تتعرف ماريتا على نوع فريسته السيئة الحظ لأن الظلام كان قد ساد المنطقة. ثم ارتفع الطير في الجو ثانية حاملاً فريسته بين أظافره. فهس هارفورد:

«هذه هي بومة المخازن»

ثم قال:

«تعالى»

ولمّا دأب في الطريق إلى المبنى وهو يقول:

«لا تخافى من شيء»

ووضع يده ليرى على ظهرها يربت عليه كي يطمئنها لتبعته هي مكرهة على ذلك. ترى هل تقابل خفافيش كما أكد لها رايان؟ ولكنها لم تجرؤ على الانصاح بخاؤها إلى هارفورد. إذ سوف يطرده هذه المخاوف عن خاطرها بركة ولكن بحزم، ويعتبره مخاوف أطفال. ثم انحنت ماريتا خوفاً وهي تنظر إلى الألواح الخشبية التي توجد بالسقف.

قال هارفورد وهو يبتسم لها:

«سوف تعود البومة لتوها، وإلى أن تعود، علينا أن نتنظر. اجلسي بجانبى يا ماريتا. إن الصبر مرغوب فيه في هذه الحالة والمزيد من الصبر. وأنا ألاحظ أنك قلقة وذلك لصغر سنك. فهل تظنين أن لديك الصبر الكافي؟»

كانت ماريتا متأكدة أن ليس لديها الصبر الكافي ولكنها لم تجرؤ أن تخبره بذلك فأومأت بالموافقة. فسّر لذلك وضغط على يدها شاكراً، ثم بعد ذلك وجه كل اهتمامه إلى الكاميرا استعداداً للتصوير.

ولم يبق بعد ذلك شيء سوى الانتظار في سكوت تام، وكانت هذه هي تعليقات هارفورد. فقد قال لها إن أية حركة تتسبب في إخافة البومة فتطير هاربة.

وسمعا صوت رفرقة أجنحة في المدخل ثم حجب ضوء القمر ليريه، ودخلت البومة بدون صوت بجناحيها العريضين وحطت على أعمدة السقف الخشبية. وكانت البومة ظاهرة، في ضوء القمر، بلون صدرها الأبيض. وبرقت عينها فحبت ماريتا أنفاسها.

كان هارفورد بلا شك مترسماً في فن تصوير الطيور. وكان هذا واضحاً من طريقة تصويره بسرعة وسكون. ولم تصدر الكاميرا، وهي تصوّر، إلا أقل صوت ممكن وفوجئت البومة فلم تتحرك ولكن أفلتها صوت آخر غير صوت الكاميرا يبدو أنه كان أتيا من جهة الباب.

فهبت البومة طائرة وهي تطلق صوتاً طويلاً يشبه العويل، وأخذت تدور حول المخزن بجناحيه ميسوطين وهي تهبط وتعلو وتحوم ليرة فوق رأسها.

شعرت ماريتا بتوتر لا يحتمل في أعصابها جعلها تطلق صيحة غيل نحو هارفورد. فلما منها أن البومة سوف تنقض عليها وتعتبرها فريسة لها. فأحاطها هارفورد بذراعيه وهو يحنو عليها بينما قررت البومة من المدخل واختفت أخيراً في ظلام الليل.

قالت ماريتا:

«أني أسفة. انى...»

ولم تتمكن من اكمال كلامها لأنها شعرت بالخوف ثانية وهو خوف أعظم من الخوف الذي سببه لها صوت البومة في هربها. ماذا يقول لها هارفورد؟ ولماذا يهس؟ وقد ترك تحفظه جانباً وأخذ يتحسس وجتها ويلس شعرها ويدها تشدّها إليه.

فقاومته ماريتا ولم تفهم قصده وسمعته يقول:

«يا عزيزتي... يا فتاتي العزيزة»

وشعرت به يتحسس وجهها في الظلام كرجل كفيف ويقول:

«دعيني أملكك... فقد انتظرت طويلاً طويلاً... وبدا الوقت لا نهاية له فقد ظننت أنك لن تأتي...»

ثم اكتشفت أصابعه في شعرها فقال:

«دعيني أقبّل شفتيك... انهما... انهما...»

ولم تسمع باقي كلامه، فقد عانقها.

ولم تقو أن تفعل شيئاً. ثم شعرت في قرارة نفسها بالعطف على هذا الرجل إذ بدأت الآن تكتشف مدى حنانه واحتياجاته العاطفية.

وبدا هارفورد يرتجف. وارتجف صوته كذلك قليلاً وهو يقول لها:

«إنني أحترم عفتك وأقدسها»

وكان كلامه غير مفهوم، وبدا متغيراً ولكنه قال:

«إن إخلاصي يعادل عفتك»

فبدأت مارييتا ترتجف خوفاً عليه وخوفاً عليها. لما قد يحدث لها معه. ولا بد أن خوف مارييتا ظهر له بوضوح إذ وخزه ضميره وأرجعه إلى الواقع من الدنيا التي كان هائلاً فيها. فرب صوته طبعياً عندما قال:

«لا داعي للخوف مني، فلن أحاول أن أجردك من عفتك، ولن أفعل شيئاً يضرّك. كيف أفعل ذلك. وأنا...»

ثم مسح وجهه بيده وهو مضطرب وحائر.

وشعرت بسرور لأنها لم تصده، فقد كان قلبها يجيش بالحنان والتشفقة عليه. وفجأة سطع نور بطارية قبيد الظلام ووقع نوره بقسوة على الشخصين المتعاقبين

تعلق نظرها بالنور ثم رفعت وسقط مثل القراشة المجردة أمام الضوء الحارق. لا بد أن اللادام هو الذي سبب الصوت الذي دفع اليوم إلى الهروب! ولا بد أن اللادام كذلك شاهد كل ما حدث من قبلات وهمسات وتجاوب!

ثم سمعا صوت تنفسه الغاضب العميق ورأيا طولاً واتساع كتفيه معكوسين

في فتحة الباب فعرقا من يكون اللادام.

همس هارفورد يقول وهو يسبح غيبته:

«ولدي... ولدي...»

ثم تسلط نور البطارية على مارييتا وبرز على طولها كتفزة غاضبة تدبنها. وأخيراً اختفى النور وساد الظلام ثانية. وحلته قدماء خارج المبنى.

نفسه.

ومر اليوم التالي. وشعرت بخوف من احتمال مقابلة رايمان، ولكن مارييتا لم تره ثانية إلى أن حان وقت العشاء في تلك الليلة.

ابتسم رايمان وكأنه يجيد في تفحصه مارييتا شيئاً مضحكاً، ولكن وراء ابتسامته برود كالثج.

فهو لم ينس المنظر الذي رآه في المخزن عندما شاهد والده يأخذها بين ذراعيه. وإذا كان لم ينس مارييتا لم تغفر له تدخله في تلك اللحظات من الحنان والكلمات التي تنطوي على أعظم درجات الاخلاص من رجل في أشد الحاجة إليها.

وبعدما تفحصته أخذ بدوره ينظر إلى بلوزتها البفسجية اللون، بدون أكمام والتفتورة المنقوشة بالزهور البفسجية. ونظر بجرأة إلى وجهها وعينيهما الحاترتين وحاجبيهما المقوسين وشفتيهما...

ثم قالت له وهي غاضبة غضباً أدهشها:
«أعرف ما تفكر فيه. ولكنك مخطئ».

رفع حاجبيه وقال:

«عندما أنظر إلى امرأة جذابة لا أهتم بالتفكير فيها بل بالاحساس بها».

ثم قصد خزانة المشروبات وأخرج كأسين وضأها بالمثروب. وكانت على وشك رفض المثروب عندما دخل هارفورد الغرفة وقال:

«هل تقدم إل حبيبتنا مشروباً يا رايمان؟»

ثم أخذ الكأس من ابنه وقدمها إلى مارييتا. وهذا الأب سعيداً وهو يقول:
«انتظري».

ثم صب لنفسه كأساً وعاد لينق بجوارها قائلاً:
«لشرب نخباً، إليك وإلى».

ورفع كأسه عالياً ثم التفت إلى رايمان وقال له:
«انضم إلنا في النخب يا رايمان».

وكانت كأس ابنه خارجة ولم يملأها ثانية وتركها على إحدى المناضد ثم وضع

٥ - ظهور في الحفل

وعند رجوعها عبر الحفول أخذًا يتعثران في ضوء القمر هارفورد يعترض مارييتا قائلاً:

«معشت سنوات كثيرة منذ أن انقطعت عن صحبة النساء. وفي الحقيقة كان ذلك منذ أن توفيت زوجتي. ولم أكن ذكراها بل بقيت عاطرة في خاطري دائماً. والآن وقد قابلتك...»

ثم كفت عن الكلام وأخذ يذراعها وبعد بركة أضاف:

«قولي لي يا مارييتا، هل تقانعين إذا أظهرت لك عواطف من وقت آخر إذا... عانتك؟»

تسببت هذه المذلة في أن تنهر دموعها لأنها صادرة من رجل مرموق وببيل. وتذكرت مارييتا ما قاله ابنه عنه من أنه ما زال يتمتع بحيوية زائدة. فإذا سمحت لهارفورد أن يعانقها ثانية وإذا قالت له إنها لا تقانع في ذلك فسوف تتغير علاقتها كلية، لا يمكن لرجل أن يستمر في عناني أية امرأة بدون أن يفقده ذلك إلى... إلى ماذا الشعور بالتكامل أو الحب! لا... فهي لا تحب هارفورد ولكنها تكن له الاعجاب والشفقة العميقة، فإذا قالت له لا... لا يذ أن يسبب ذلك له ألماً بجانب المهانة.

هست تقول:

«لا أمانع في ذلك».

سمعته ينتهد بارتياح مما يدل على التخلص من الحيرة وانتعاش الأمل في

رايان يديه في جيبه ونظر إلى والده. وكان ذلك تحدياً منه لوالده الذي لم يهتم لهذا التحدي وأولاه ظهره.

وأثناء العشاء خيل إليها أن الأب والابن اشتركا في اتفاق سري على أن يؤجلا خلافهما طوال هذه السهرة.

وبما أن هارفورد يسعه أن يحدث أي شخص عن حياة الطيور سرّاً جداً مناقشة الموضوع مع ابنه. واستمر الحديث على المائدة إلى أن تناول الجميع القهوة. وفجأة تمّت أن يكون ذلك اللطف الذي أبداه رايان حقيقياً وأن يكون البرود الذي تخيلته من قبل كامناً وراء استقامته جزءاً من قلقها.

ولما غادروا المائدة جاء هارفورد إليها. وأخذ يدها في يده وضغط عليها وقال:

«يجب أن أذهب إلى محيائي قبل أن يفتني ضوء النهار وسوف أعود عندما تغرب الشمس. وأنتى أن أجعلك منتظرة عودتي. وأعدك ألا أظيل بغائبي هناك لمدة طويلة».

واستمر رايان يتسم حتى ذهاب والده. ولما نظرت إليه شعرت بقليلها يسرع في ذفائه. وتساءلت إذا كان قد شغف بها؟ أو إذا كان ذلك الأسلوب الساخر الذي يديه نحوها منذ وصولها إلى منزله انتهى إلى الأبد؟ تمّت ذلك من كل قلبيها. وتمّت كذلك أن يقلبها هذا الرجل كصديقه.

قال لها رايان وهو واقف معها في البهو «سأذهب إلى غرفتي العلوية».

ولم تقو مارييتا على إخفاء عيوسها. فهل يتركها بمفردها؟ ولكنه عاد يقول وهو يرقب وجهها:

«هل تنضمين إلي؟ يمكنك مراقبة الأفق بينما أقوم بعمل».

لم تخف دهشتها لهذه المفاجأة وسألته:

«ألا تخاف في وجود شخص آخر معك؟ وهل أسند تركيزك على عملك؟» طرقت عيناه ثم قال:

«لن نفسد تركيزي على عملي، فوجودك كوجود أي امرأة أخرى معي...»

وبدا كأن اللطف الذي شعرت به مارييتا قد انقش قليلاً ليكشف عن سحرته المعهودة. ولكن سرعان ما بدا لطيفاً، ثابتاً إذا ابتسم ابتسامة عريضة جعلت قلبها يهتف. وتأكدت أنها كانت تتخيل أنه يسخر منها.

وكانا واقفين أمام المدفأة حيث تقش بين الألواح الخشبية التي تكسو الحائط نموذج طبق الأصل لشعار الأسرة الموجود فوق المدخل الرئيسي للمنزل، ورسمت عليه أمواج البحر وطيور تحلق نحو الأفق ورأى رايان مارييتا تنظر إلى الشعار قسماً قاتلاً:

«هل تفهمين اللاتينية؟»

هزت رأسها بالنفي لقال لها في شيء من الاهتمام:

«سأقوم بالترجمة. ففي هذه الأيام سيكون المعنى مناسباً. وهذه هي الترجمة: وراء الأفق تكمن الأحلام ووراء الأحلام توجد الحقيقة. وهذا معناه في لغة القرن العشرين، أنك قد تهربين من الحقيقة، كما يمكنك ذلك، ولكن في النهاية لا بد من مواجهتها مهما كانت مرارتها».

ثم أشار بيده إلى السلم وقال لها:

«اتبعيني».

وتركها في مكتبه برهة ولما عاد إليها وجدته قد غير ملبسه وارتدى بنطلوناً من الجينز الأزرق وقميصاً مفتوح الرقبة، وخلع عن كتفيه الجوار الرسمي مع ملبسه. فعندما يكون بملبسه الكاملة تصبح شخصيته قوية طاغية ولكنها محصورة في مجال معروف. أما في ملبسه العادية فليس هناك حدود معروفة لانتطاعه إذ يحطم الحواجز التي تعوقه.

وتحوّلت مارييتا في غرفته وهي تعجب كيف سمح لها بدخولها والاقتراب من أجهزته ومعداته. فنظرت إلى الحرائط الجيولوجية المتعددة الألوان والتي تغطي جدران الغرفة. وبجانب الميكروسكوب وجدت العدسات اليدوية والزجاجات التي كتب عليها ماء النار. ومئات من عينات الصخور مرصوفة على الرفوف وألواح الزجاج الصغيرة للعينات التي تفحص بالميكروسكوب.

ثم تناولت قطعة من الصخور فعجبت لألوانها. وفجأة سمعت صوته يكلها

ففرغت ولم تشعر به وهو يراها:

«هذه الصخرة من اسكتلندا».

ثم تقدم ووقف بجانبها وقد شتر كعبه فلامست ذراعه العارية ذراعها.

فهل كان يفعل ذلك عن عمد؟ ولكنها لم تلاحظه.

ثم أشار إلى قطعة الصخر وقال وهو يشير إلى ألوانها:

«إن هذه الخطوط المتنوعة من الأسود والأبيض والبني تكوّن من الحرارة العالية والضغط وهي عوامل أثرت على الصخور وذلك بضغطها حتى غيّرت بعض المعادن التي تحتويها وحولتها إلى خطوط متوازية».

ثم ابتسم لها وبرقت عيناه وهو يسأله:

«هل أضايقك بذكر العلوم؟ إن هذه القطعة من الصخر بالذات هي أقدم قطعة صخر في المملكة المتحدة بأسرها».

ثم يقفد مكتبه وأخذ يقلّب في رزمة من الورق وقال:

«هذه تعتبر حقبة قصيرة من الزمن تتعامل الجيولوجي معها، وهذا الرجوع إلى الماضي الصحيح لا يمكن للشخص العادي أن يفهمه».

ابتسمت له، وفكرت أن تنازحه وهو في هذه الحالة من السرور فقلت له:

«ولماذا لم تضيف تلك الكلمات الثلاث التي تثير غضبي مساعدة المعسل الصغيرة».

رفع رأسه ليرى ابتسامتها المتحدبة، ولكن تلك الابتسامة ماتت على شفاهها عندما لمست تغير مزاجه.

لكن الابتسامة التي ردت بها على ابتسامتها كانت عريضة وبراقة خفت من مخاوفها، وبدا للعجب، كانت عيناه تفتلقان تماماً عن ابتسامته.

فهزت رأسها تعجباً وهي تهمس لنفسها بألا تتعلق بالأوهام ووقفت قرب النافذة تطلّ على الحدائق الواسعة المحيطة بالمنزل.

ورجعت مارينا إلى الواقع عندما سمعت صوته يقول:

«مارينا»

كان جالساً وراء مكتبه يهدو. فراحت تتذكر ما قرأته في أحد كتب هارلورد حيث طالعت أن بومة المخزن لا تحدث أي صوت عندما تنفض على فريستها.

وقال لها رايان بصوت هادئ ولكنه ينطوي على لهجة أمرة لم تقو على تجاهلها.

«تعال هنا يا مارينا، ستشاهدين شيئاً جميلاً».

وقفت بجانبه ونظر إليها فرأى ابتسامتها الرقيقة. ثم قال:

«هل يمكنك استعمال الميكروسكوب؟ وهل تعلمت ذلك في مجال عملك؟»

فهزت له رأسها بالاججاب، ثم أردف يقول:

«هذا ما فسرته لك من قبل، ميكروسكوب جيولوجي. وهذا الجزء منه يسمى المسرح ويمكن لقه، سأدخل فيه عينة معدن من مجموعة تسمى «كلوريتش».

وأخذت تراقبه فرأت أصابعه المدربة وهي تحركها بمهارة إلى أن وصلت إلى مكانها ثم أكمل يقول:

«والآن أضفت العدسة العنقودية، فانظري داخل الميكروسكوب».

ثم رجع خطوة إلى الوراء لتتمكن من النظر في داخله، وأطلقت صيحة دهشة وهي ترى التغيرات التي تطرأ على الألوان المختلفة. ثم قال لها:

«حركي اللوحة الزجاجية».

فلما فعلت كما أمرها، رأت الألوان تتغير وتتداخل. فالألوان الخضراء الجميلة

تندرج وتذوب في الألوان البنية التي تميل إلى الاحمرار.

ثم رفعت نظرها، وكان وجهها سعيداً بما رأت وقالت:

«هذه خرافة لا يصدقها عقل».

ثم حبست أنفاسها عندما رأت التعبير الذي انطبع على وجهه. وكان واقفاً قريباً جداً منها ويجعلها تضغط على متصلة التجارب قديماً تبشع بسرعه بالانارة

والخوف.

أما وجهه فقد خلا من كل التعبيرات الحانية التي كانت تكسوه طوال هذه الأسية.

لم تجد به أي أثر للسحابة ولا الانشام. وتغير تعبير فمه إلى مرارة واحتقار. إذن هذا ما كان كامناً وراء اعتدال مزاجه، ولم يكن مجرد أوهام.

ثم وضع يديه على كتفيها وأدارها إليه بشدة، فأطلقت صيحة ولكنه لم يأنه

لها ثم قال:

«ماذا تريدن؟ وما الذي تسعين إليه؟ هل هو مركز والدي؟ أم ماله؟ أم منزله؟ إنه ليس الحب الذي يجعلك تسعين لرجل يكسرك بشهانية وعشرين عاماً، أن يطاردك الغرام في ظلام أحد المخازن».

«ماذا تقول؟»

وكانت تتكلم هامة وقد شحب وجهها ثم أضافت:

«ماذا تعني؟ هل تظن أنني أحاول جعل والدك يقع في حبي ويتزوجني؟ فرة عليها يقول».

«وإذا كان الأمر غير ذلك فأنت تدعيتني. إذن ما هو غرضك؟»

«هل هو الحب بدون ارتباطات؟ إذا كان الأمر كذلك فأنا الرجل الذي ترغبين. لأنني من جيلك. وفي إمكاني تلبية طلباتك. فهل يقدر والذي على ذلك؟»

ثم مدّ يداً مثل حزام من الحديد وطلوق بها خصرها وقال:

«مؤذلك»

ورفع يده الأخرى ووضعها على عنقها وأمال رأسها إلى الوراء حتى أطلقت صيحة ألم. ثم رأى الدموع تلاً عينها، وعندئذ هوى. مثل الطائر المفترس على فريسته العزلاء حتى أنها، مثل فريسة النسر الجارح، ارتقت بدون حراك. وبعد ذلك أراحها جانباً بقسوة. وقصد النافذة وهو يصلح من ترتيب شعره.

ثم استدار وارتكز على حافة النافذة وقال لها بغضب:

«والآن اتركي والذي لحاله. وإذا لم تكفي عن الجري وراءه فسألقنك درساً وراء درس إلى أن أجعلك تخضعين لي خضوعاً كاملاً. وعندما يحين الوقت كي يتخذك زوجة له. سيكتشف أنه جاء متأخراً لأنك أصبحت لي».

ثم تركها وغلقت المكنن.

أخذت مارييتا تروح وتجيء في غرفتها حائرة. فوجدتها كضيفة في هذا المنزل لم يعد ممكناً. في هذه الليلة وهم يشربون شراب الشوكولاتة سوف يغمر هارفورد. بكل هدوء، أن والدتها بحاجة إليها وعليها أن ترحل أسفة. وإذا كان رايان حاضراً فسوف تواجهه بهدوء مهما كلفها ذلك من جهد.

وعندما دخلت غرفة الاستقبال وجدت هارفورد وحيداً. فنظرت إليها وقال لها بارتياح:

«نصبت أن تحضري قبل رايان».

ثم أخرج صندوقاً مربع الشكل، وقال:

«ذهبت بعد الظهر واشتريت هذا بينما كنت مع رايان. ولم أذكر ذلك عند تناولنا العشاء لأنني أردت أن تكون وحدنا عندما أقدمها لك».

ثم لمس يدها في شيء يشبه التقدیس وقال:

«يا عزيزتي مارييتا. تقبل هذه الهدية فقد اشتريتها لك».

فخفق قلبها. هذه هدية أخرى؟ ماذا تفعل؟ ماذا يكون رد فعل رايان إذا

قبلت هذه الهدية؟ إنها خائفة منه. فهتفت تقول:

«لكن يا هارفورد لا يمكنني ذلك».

قال باهتمام:

«الكاميرا يا مارييتا هي قطعة أساسية من الأجهزة العلمية التي يستعملها المهتم بمراقبة الطيور. وبما أنني لن أفكر من إعارتك الكاميرا الخاصة بي دائماً فسوف نحتاجين إلى هذه الكاميرا عندما تخرج سوياً».

هزت رأسها وقالت:

«يا هارفورد - إنني -»

«إنني ماذا؟ إنني لن أفكر من الوصول إلى مستواك في الخبرة وأهنيامك الزائد بتلك الناحية؟ هل تقول إنها لن تبقى هنا طويلاً كي تستعملها؟ نعم هذا ما يمكن قوله».

«يجب أن أرجع إلى منزلي يا هارفورد. قوالتي طلبت مني أن أعود».

رفع يده وقال:

«لا داعي أن تقلقي على والدك... كنت أنوي أن أخبرك أثناء تناول العشاء. ولكنني كنت متبهاً بحدث أبني. ولذلك نسيت إذ عندما رجعت من المدينة بعد الظهر تكلت والدك تليفونياً. فقلت لها إنك في الخارج. ولكنني ثلثت معها لمدة وطلبت مني إبلاغك أنه يمكنك البقاء طالما أريد منك ذلك. وفي الحقيقة وجهت

إليها دعوة مفتوحة لزيارتك فوعدت أن تحاول الحصول على إجازة من عملها وتزورها.

ثم عبس قليلاً وهو يقول:

«ولا أرى أي داع لأتقبل الكاميرا يا ماريشا».

«أرجو ألا تحسني ناكراً للجميل يا هارفورد ولكنني لا...»

وهنا دخلت السيدة فيسك حاملة صينية فيها أقفاص الشوكولاته. ولما شكرها هارفورد قالت إنها ستري هل يمكنها إقناع الدكتور رايان بترك مكتبه والتزول أم يطلب منها إحضار المشروب إليه. فودت ماريشا ضارعة أن يفضل البقاء في مكتبه.

«عافاً يا عزيزتي»

قال هارفورد ذلك بركة وهو يشير إليها أن تجلس بجانبه.

«بدأت بالنظر ثم بالكاميرا. لا يمكنني الاستمرار في تلقي هداياك من غير أن...» لكنها كفت عن الكلام. وكانت تود أن تقول من غير أن أعطيك شيئاً مقابل ذلك. ولكن كلمات رايان كانت ترن في أذنها فقالت بلهجة ضعيفة: «بدون أن أعطيك شيئاً يوازها».

فصمت هارفورد وقال:

«لا تفكري حتى في ذلك. لست رجلاً فقيراً. وسوف أخبرك ذات يوم المزيد عن حياتي. ولكن لم يحن الوقت بعد».

ثم قال وكأنه يطلب نفسه:

«لم يحن الوقت بعد».

وبدا كأنه انتقل إلى عالم خاص به. فشربت ماريشا الشوكولاته وظل شراب رايان على الصينية.

وبعد بركة فتح الباب ووقع نظر القادم على ماريشا فرأى ذراع هارفورد ممدداً على الوسادة وراء ظهرها. ورأى الكاميرا.

تصلبت عيناه لما وقع نظره على ماركة الكاميرا وقد رثمتها فقال وهو يتكلف المرح:

«اليوم عيد ميلادك»

وكان يعرف الجواب قبل أن يلقى السؤال. فودت ماريشا تقول وهي تنظر إلى الهدية وتضع أصابعها عليها:

«لا».

ورد والده يقول وهو يبتسم:

«أعطينها الكاميرا. فسوف تحتاج إليها لمساعدتها في تنمية اهتمامها بمراقبة الطيور».

«وهل ستقبلتها»

ألقي رايان على ماريشا هذا السؤال. ولم تخدع بالظن الذي لمسته في طعنته والذي خيل إليها أنه سؤال بريء. فقد استشفت من ورائه أنه ممزوج بالتهديد.

ثم رفعت رأسها بكريها وقالت:

«ولم لا أقبلها»

«وهل تعرفين كم كللت والدي من ثمن! فهي واحدة من بين أغلى الأصناف الموجودة في السوق».

ملأ الدم وجهها فقد كانت ماريشا تجهل هذه الحقيقة. وارتفع صوت والده يقول والغضب يشعلكه:

«هذا شأني يا رايان... ولا يهم كم أنفق عليها».

ثم جذب ماريشا إليه ووضع ليله على خدها وقال:

«فيذا أردت أن أعطيكها نصف ثروتني...»

أخذ رايان رشقة من الشوكولاته الباردة، ثم وضع القدر على الصينية بقوة وقال:

«أرجو أن تسمحوا لي بالذهاب».

ثم ترك المكان وخرج.

وفي صباح اليوم التالي أخبرتها السيدة فيسك أن الدكتور رايان تيبودور غادر المنزل وسافر. ولا تعرف وجهه. فقالت:

ربما إلى لندن يا أنسة نيوبل. أحياناً يذهب بهذه الطريقة ولكنه يقول لي عن وجهته. أما هذه المرة فلم يخبرني بكلمة واحدة ويبدو أنه ذهب الليلة الماضية لأن سريره لم يستعمل.

لم تظهر ماريتا اهتماماً كبيراً بالأمر ونظرت إلى مكان هارفورد على المائدة فوجدته خالياً. فعدت أنه لم يتناول إفطاره بعد. ثم قالت: «سأنتظر البروفسور نيودور يا سيدة - فيسك».

فالتسحت السيدة فيسك، وفكرت ماريتا في غضب رايان من تصرف والده، فاهتمامه يرجع إلى نوع من الحب الأبوي. ولكن هل كان تصرفه في ظلام المخزن بناء على عاطفة أبوية؟ وكلها الحب التي هس بها والعناق؟ ثم دخل هارفورد وقال:

«إنك تدين متعشة ولطيفة كعادتك دائماً».

وأشار إليها بأن تأخذ مكانها على المائدة ثم قال: «لا أرى مكاناً لرايان، فهل تناول إفطاره؟»

إذا فعنى والده لا يعرف بذهابه.

«تقول السيدة فيسك إنه سافر».

تقبل هارفورد الخبر بهزة من رأسه وقال:

ربما ذهب إلى لندن حيث يوجد المكتب الأوروبي الرئيسي لشركة البترول التي يعمل فيها.

ثم نظر إلى ساعته وقال:

«لا بد أنه ذهب مبكراً».

«السيدة فيسك. تظن أنه سافر البارحة. فسريره لم يمس».

رفع هارفورد حاجبيه دهشة ثم هز كتفيه وقال:

«هذه هي طريقته. فهو لا يحافظ على شعور الغير، إذا طرأت له فكرة ينفذها في لمح البصر. ولكن لن نضيق وقتنا في التحدث عن ولدي لأنني ذاهب إلى المخنأ ثانية. فهل تأنين معي؟»

«ليس عليّ إلا أن أوافق».

هذا ما فكرت فيه ماريتا. وكيف أفضي وقتي؟ أليس هذا ما جت له - أن أعلم كل شيء. عن هواية هارفورد المفضلة...

ولما جلسا معاً في المخنأ كانت ماريتا تنظر إلى الجهة التي يوجه هارفورد نظرها إليها. وتصت كلها طلب منها ذلك. وتلم بكل المعلومات التي يلقبها عليها ثم تتساعا لتوها. وكانت أفكارها تقودها إلى التمتع بأشجار الغابة والزهور على ألا تكون. كما تخيلت في أحلام اليقظة، وحيدة فلا بد أن يمسي بجانبها شخص طويل القامة يسك بيدها ويتجسس أصابعها ويضحك في عينيها.

وأناقت على هارفورد يصيح:

«إنه الطير الذي أنتظره إنسي أمير غشاه وهو صوت مشير انظري يا ماريتا انظري هناك».

ثم رفع غطاء الباب قليلاً وقال:

«استعلمي منظارك... هل يمكنك رؤيته الآن؟»

وحاولت ماريتا، أن تراه بالمنظار. ولاحظ هارفورد محاولتها اليائسة فقال لها ليساعدها:

«إن شهره بني اللون بخطوط قاتمة. وهو صغير الحجم لكنه يميز قطن مخضتبه».

ولكن ماريتا لم تتمكن من رؤية الطير، فشجعها هارفورد قائلاً:

«انظري ثانية. ولا تيأس بهذه السرعة».

ولكن كيف تقول له إنها خائفة أن تنظر ثانية حتى لا ترى ابنه يظهر مرة أخرى في عدسة المنظار وهو قريب منها بحجمه الكبير؟

قالت وهي تلوم رغبته في إعادة الكرة للعثور على الطير:

«لا قائدة في نجاحي... فأنت تضيق وقتك معي يا هارفورده».

وفكرت... إن كل ما تريد معرفته هو ذلك الخيال الذي رآته. وماذا تعني تلك الرؤية؟ هل هي تريد بحبته ثانية. وهل تود أن تكون بين ذراعيه ثانية.

ولا بد أن هارفورد قرر ألا يضغط عليها بشدة. لأنه تركها بعد ذلك لأفكارها وأخيرها. وهما يتناولان الغداء أن اجتمع هواة الطيور سينم بعد أربعة أيام. وأنهم سيتناقشون في الموضوع ويتلقون ما بقي من وقت في الحديث.

وعندما كان هارفورد يحببها بعد انتهاء السهرة مال عليها وقبلها برفقة وهمس قاتلاً:

«ألا يغضبك هذا يا مارييتا؟»

فهرت له رأسها بالنفي لأنها لم تتأ أن تغضبه. فليس في قبلة هارفورد ما تعترض عليه. ثم قفز عقلها أربعاً وعشرين ساعة إلى الوراء، وأخذت تفكر بدون إرادتها في ابنه.

ومرت ثلاثة أيام بدون أي خبر عن رايان. وشعرت مارييتا أن الوقت يمر ببطء وكأنها تنتظر شيئاً، وكانت تقصد المخبأ كل صباح بإصرار وتقضي الساعات كلها حتى وقت الغداء بجانب هارفورد، والسهرة في تكرس نفسها لقراءة كتب هارفورد ولكن لم تكن لديها القدرة على التركيز.

وفي الليلة الثالثة كانت وحدها لفترة فألقت بالكتب جانباً وقصصت النافذة لتتأمل على الحديقة...

واشأزت مارييتا من نفسها، فاستدارت إلى الغرفة إذ يجب أن تكلم عن تعذيب نفسها بالتفكير في رايان تيودور. ثم شعرت بالقلق وقصصت التليفون، وكان هارفورد قد سمح لها باستعماله. عندما تريد، وسعت صوت والدتها في الجانب الآخر من الخط وأصبحاً مشرحاً رفرف من روحها المعنوية وأعطاهما الشعور بالراحة والعزاء.

سألتهما والدتها عن حالها وهل هي بخير وهل تستمتع بوقتها ثم قالت: «تكلمت مع البروفيسور ووجدته لطيفاً جداً. وكان قلقاً عليك وأراد أن يعرف إذا كنت سعيدة هناك».

ثم قالت لها باهتمام:

«هل أنت سعيدة؟ وهل تريد أن أحضر للاقامة معك؟ فقد قال لي إنه يرحب بي في أي وقت أشاء».

ثم فكرت مارييتا... ما معنى حضور والدتها للاقامة هنا؟ إن حضورها سوف يزيد الأمور تعقيداً. ثم أسرع وقالت لوالدتها:

«لا تحضري لأجلي. وطبعاً إذا أردت ذلك...»

ولا بد أن والدتها لاحظت عدم تشجيعها فلم تناقشها في الموضوع أكثر ولكن مارييتا قالت:

«إن رايان ابن هارفورد...»

ارتفع صوت جوزفين بالاهتمام وقالت:

«هارفورد، هل هذا هو اسم البروفيسور؟ وهل له ابن؟ لم تقولي عنه شيئاً. وما عمره؟ يا عزيزتي؟ وماذا يعمل؟ وما شكله؟»

ردت مارييتا على كل أسئلتها فهي تعرف ماذا تعني والدتها وماذا تأمل. البروفيسور كبير في السن، أما ابنه - وفي حساب مريع يمكنها تقدير سنه - فهو مناسب لها. ثم قالت:

«يسعدني أن يكون بجانبك شخص يقارب سنك. لا تقلقي علي يا عزيزتي مارييتا وأبقي كما ترين».

وجاء أصدقاء هارفورد إلى المنزل. أخذوا ينظرون بدعشة إلى لعمامة البهيم وكان هارفورد قد أبقى مارييتا إلى جانبه. وكان يبدو أنه يعرضها لهم ليفهموا أنها صديقة خيمة، ويضع يده على ذراعها وكأنه يرههم أنها أصبحت لمرءاً من العائلة وجزءاً من حياته.

لم يكن رايان هنا، بل هو بعد عنهم بأميال كثيرة. فهو في لندن وعلى ذلك فإن الذي لا يراه لن يعرف به.

وأغراها ذلك الحاضر فجلست بجانب هارفورد وهي تشعر بالراحة والاطمئنان.

وكانت هناك نظرات موجهة إليها من أصدقاء هارفورد... النساء ينظرن بدعشة والرجال بطيعة وشيء من الحسد.

وكان الحديث يدور بالطبع حول حياة الطيور وعن ملازمة منطقة نور فولك لمراقبتها، ووجود أندر الأنواع فيها. وعن قلقهم وخوفهم من التلوث الذي يؤثر على الأنهار والبحيرات في نور فولك. فلا بد من عمل شيء للحفاظ على المنطقة.

ثم فتح الباب، وليرة انتقل الاهتمام من الشخص الذي كان يحدث المجموعة

إلى القادم الذي بدأ على عتبة الباب طويل القامة وشعره البني الفاتح على جبهته يطوف ينظره في المكان لتوقعت عيناه على والده أولاً ثم على الفتاة الجالسة بجانبه وسمع أحد الضيوف يقول:
«أهلاً رايان».

ثم ردد التحية الحارة كثيرون غيره.

هز رايان رأسه بحياء، وأبسم لكنه لم ينسحب بل أخذ يبحث عن مقعد يجلس عليه. وبالصدفه نظرت المرأة الجالسة بجانب ماريشا الى الساعة الموضوعه على المنفذه وقالت:

«لا بد أن أذهب فلدني موعد في نور ويتش. إني أكره الذهاب قبل تقديم الطعام. ولكن...»

انفجر الحاضرون ضاحكين ثم أضافت:

«خذ مكانك يا رايان. اجلس بجانب هذه الشابة اللطيفة صديقه والدك».

شعرت ماريشا بقلق عند سماعها هذا الكلام. لكن هارفورد ارتاح لها فنظرت إلى ابنه ولعبت ابتسامة خفيفة على شفتيه. ولأحظت ماريشا هذه الابتسامة وهي تلتفت إليه فتعجبت لها. لأنها لم تكن ابتسامة ترحيب بل ابتسامة انتصار وكان الأجدر به أن يرحب بابنه. بعد هذه الغيبة الطويلة، لا أن يستغفر. ثم سمع والده يقول:

«نعم يا رايان. اجلس بجانب شابتي اللطيفة».

فنظر ابن البروفيسور طويلاً إلى صديقه والده الشابة. ثم مضى مشمهاً نحوها ولا بد أنه لاحظ احمرار وجهها وحركاتها المتوترة، وهو يأخذ مكانه بجانبها. وأبدأ أحدهم بالكلام لكن ماريشا لم تتمكن من سماع ما يقولون بل كانت حبيسة في موقف محرج بين الأب والابن، ثم همس رايان لها قائلاً منتهزاً ارتفاع صوت أحد المتكلمين:

«لا تخالي يا حبيبتي. فلن أأكل... الآن... سأبقى هذه المتعة إلى ما بعد».

وانتابها الغضب هذه اللهجة التي استعمل فيها كلمة التذليل. فقالت له بشدة:

ثم ضغطت يد هارفورد على يدها وبقيت فوقها. فهو الآن يتباهى بملكيته لها أمام كل أصدقائه. وهذه المرة كان ابنه بينهم.

وخلال المناقشات، التي كانت استحوذت على اهتمام ماريشا من قبل ثم بدت الآن طويلة ومملة، كانت ماريشا تشعر بوجود رايان بجانبها. فكل حركة يقوم بها وكل كلمة يقولها كانت تسجل على جسمها المتوتر.

لماذا رجع في تلك اللحظة؟ ولماذا تركت له الضيفة هذا المقعد بالذات؟

وشعرت ماريشا بالراحة عندما نقرت مشرفة المنزل على الباب ودخلت لتدفع عربة الطعام المحملة بالشطائر والقهوة. وبينما كان الضيوف يأكلون بشهية، انتقل هارفورد بين أصدقائه ثم جلس في آخر الغرفة مع فريق منهم. وبقيت ماريشا مع رايان. وكانت غير متأكدة من حالة مزاجه فنظرت إليه ولكنه أبسم وقدم لها إحدى الشطائر بحركة استخفاف خالية من الود. ثم قال لها:

«تبدلين شاحبة ومجهدة. هل انتقدتني هذه الدرجة؟»

ولكنها لم ترد أن تهزم باللهجة هذه فردت تقول:

«وهل كنت غائياً؟ إني لم ألحظ ذلك».

فأطلق ضحكة لفتت انتباه أحد الضيوف. وكان الرجل رمادي الشعر محترق الوجه يصل طوله إلى كتف رايان فترك أصدقائه وقصدها ثم قال:

«كيف حالك يا رايان؟ سمعت أنك عدت قريباً من الخارج. متى ستنهي سفرائك؟»

«لن أنهىها إذا أمكنتني ذلك يا سيد ويلس. ولدت لأكون جوالاً».

«ألا تنوي الاستقرار؟»

ونظر السيد ويلس الى ماريشا وأردف يقول:

«ألا توجد امرأة في حياتك تقيدك هنا؟»

فهز رأسه بشدة وهو ينظر إلى ماريشا بقسوة ويستسم:

«لن تتمكن أي أنثى أن تقيدني إلى مثل هذا المصير. فإذا كان قدري أن أجرب العالم من خلال عملي، لا أشكو من ذلك لأنني أقدر حريتي كما يقدر بعض

الرجال زوجاتهم».

فعضت مارييتا على شفتيها... الخزية... فكم كرهت هذه الكلمة وضحك

السيد ويلمر عالياً وقال:

«سيأتي اليوم يا رايمان ونجد نفسك واقفاً في فخ عينين جميلتين».

هز رايمان رأسه ثانية وقال:

«تجتمع بالمحب ثم ألقه جانباً واذهب. هذا هو دستور في الحياة».

وضعت مارييتا فنجان القهوة بدون أن تكمله فنظر إليها رايمان ورفع

حاجبيه ولكنها أدارت رأسها وتلافت نظراته.

ثم سأل السيد ويلمر مارييتا:

«هل رأيت معالم تور فولك يا أنسة نيوبل؟»

ردت عليه مارييتا بالنفي، فاستنطرد:

«إن فيها قرى تسمى النظر فهناك هتغام، وهي وثيقة الصلة بتاريخ الولايات

المتحدة القديم - إذ هرب أحدهم ويدعى روبرت بك وكان من المدينين

المضطهدين، إلى امريكا وأسس هناك مدينة هتغام في ولاية

ماساتشوستس وآخر يدعى صمويل لىكون. ذهب أيضاً إلى هناك. وكان

الرئيس أبراهام لىكون سليله المشهور. وفي جنوب هذه المنطقة مدينة

شيتفورد حيث والد توماس باين مؤلف كتاب حقوق الانسان وعلى

مقربة من هنا أيضاً تقع غريجز غريب حيث عاش إنسان ما قبل التاريخ.

وكان يعمل في مناجم الأحجار الصلدة. وبقي منجم منها مفتوحاً. يجب أن تقوم

بواجبك يا رايمان، نحو الأنسة نيوبل وترها معالم شرق انغليا وخصوصاً

المناجم التي من اختصاصك. أليس كذلك؟»

فهز رايمان رأسه وقال:

«إنك تقع في الخطأ المعهود. فهذه حفريات وليست جيولوجيا وشرق انغليا

حديثة العهد نسبياً ولا تهم الجيولوجي كثيراً».

ضحك السيد ويلمر وقال:

«هكذا يتكلم الانسان الممتاز».

«الممتاز؟ لا أظن ذلك. الحفريات مثل الجيولوجيا موضوع هام يتطلب تاريخ

تطور الجنس البشري، ولكن الجيولوجيا لها مجال آخر».

وانقسم هارفورد إليهم، ورجع السيد ويلمر يصتر ويقول:

«تعتقد أن أحد قروص العلوم يتفوق على الأخر».

فنظر إلى أبيه وقال:

«قطعاً لا. إن حب العلوم هو الشيء الوحيد الذي تشارك فيه أنا وأبي...».

قال السيد ويلمر:

«القصة المعهودة يا هارفورد! الابن يتور على الأب! الجيل الجديد يتور ضد

القيم التي عرکها الكبار».

وقبل أن يتمكن هارفورد من الرد قال رايمان:

«هذا صحيح. إن قيمى الأخلاقية لا ولن تتوافق أبداً مع قيم والدى».

فرد هارفورد والغضب يملأ عينيه:

«لا تتكلم عن الأخلاقيات يا ولدى. فإنك لا تقلك منها شيئاً. ولن تفعل».

ثم التفت إلى صديقه وقال:

«أسف يا هاري، انه صعب المراس دائماً. وقد أصبح في سن يصعب معها أن

يغير من عيوبه».

وضع رايمان صحنه الخالي وهز رأسه للسيد ويلمر وخرج من الغرفة.

فتنهده هارفورد وقال:

«من حسن الخط أنه لا يبقى طويلاً هنا وإلا ستظل الحرب سجالاً بيننا. تعالى يا

عزيزتى وتعرّتي بأصدقائى فإني أود أن أنتهى بشابتي اللطيفة كما وصفتك

سيفتى».

وتبع مارييتا هارفورد أينما ذهب. ولكن أفكارها تابعت رايمان بعد

خروجه.

«هل تحرس بابها لتبعد الذئب عنه يا أبي؟»

فيدا وجه هارفورد الملتهب بعظام خديه العالية وعينه الذكيتين يميل إلى

النحول ثم قال وصوته مغمم بالألم:

«لن أدعك تقترب من هذه الفتاة يا رايان.. لن تحسها. هل تسمعي؟»

«كلامك جاء متأخراً.»

وكان رايان يتكلم بكسل ويميل إلى الورا في مقعده ويمسك فنجان القهوة

بين كفيه ثم أكمل يقول:

«عرفتها من عشرة أو اثني عشر يوماً. وأنا كما هو معروف عني أعمل بسرعة.

ليس كذلك؟»

وكانت عيناه جامدتين كالصلب.

فضغطت ذراع هارفورد التي كانت تطوق كتفي مارينا. عليها بقوة

وسألتها:

«هل هو... هل...؟»

فنظرت إلى وجه هارفورد وتذكرت عنق رايان ورن صوته في محبتها

وتهديده بمعاقبتها إذا لم تدع والده وشأنه، وإجبارها على الخضوع التام له. فهل

لها؟ بل فعل أكثر.

نظرت مارينا إلى رايان ورأت ابتسامته الجامدة تحذرهما ألا تقول

الحقيقة فكذبت عليه قائلة:

«لا يا هارفورد. فهو لم يمسني.»

فأدعا هارفورد إلى الباب ورأت الارتياح يبدو في عينيه. لكن ابنه لم ينته

من كلامه بل قال:

«اصطحبها حتى غرفة النوم وليس إلى الفراش وتذكر أنك ولدت رجلاً مهذباً

وتتمتع بأخلاقيات العهد الماضي.»

فالتفت هارفورد بسرعة وقال للمرة الثانية تلك الليلة:

«لا تحاضرني عن الأخلاقيات يا رايان. فمستواك الأخلاقي واقتسارك إلى

المبادئ من حيث تصرفك مع النساء يجعلني أشعر بالاشمئزاز. وإني أكرر قول:

٦ - الرجل الحشن

رأت مارينا رايان ذلك المساء. عندما نزل إلى غرفة الاستقبال لتناول

مشروب نهاية السهرة. وبينما شرب كل من مارينا وهارفورد الشوكولاته

طلب رايان القهوة.

وبينما كانت السيدة تقدمها له قالت:

«أعددت القهوة كما طلبتها يا دكتور تيودور. ولكن لن تتمكن من النوم مع

هذه القهوة الثقيلة.»

فابتسم لها رايان ابتسامة خفيفة وقال:

«أنا محتاج للبقاء مستيقظاً يا سيدة فيسك فلنني عمل متأخراً وإنجاز.»

تغيبت حصة أيام وبالرغم من ذلك لم يلحظ غيابي أحده.

«بل أنا لاحظت ذلك. فتقديم الطعام الذي لا يناسب شهية أبيك وشهية الأنسة

نيويل لا أعده عملاً مسلياً. إنها بأكلان كميات خفيفة وأنا أتساءل كيف

يظللان بصحة جيدة.»

انحنى رايان إلى الأمام يحرك قهقهته التي وضعها على منضدة منخفضة.

ولما رفع نظره أخذت عيناه تطوفان بمفاتيح مارينا التي بجانب والده. ثم قال:

«إن الأنسة نيويل، على الأقل تبدو في قوام رشيق.»

ولهم هارفورد مغزاة فصعد الدم إلى وجهه. وهب واقفاً وقال:

«تعال يا مارينا لتنامي.»

فتجمدت الابتسامة على وجه رايان وقال:

دع هذه الفتاة وشأنها»

تمكن هارفورد من اجتياز الهوة الفكرية السحيقة التي تفصلها ورفع مركزها الاجتماعي لتكون نذاً له. وربما لا تعرف سبباً لذلك. لأنها متأكدة أن رجلاً صامتاً مثله - لا يتكلم عن شعوره الداخلي أبداً - لا يمكن أن يصارحها بشيء. لكنها عرفت الآن. لأن ذراعيه طوقتاها وعانقها كما يعانق الرجل امرأة تروق لرغباته. ولم تحاول التخلص منه. ثم سعا صوت ابن البروفيسور يقول بلهجة باردة مثل عصا من الصلب البارد وهو يرمي بها:

«أرجو المغفرة»

جذب هارفورد ماريئا إليه وأطبق عليها بحرارة.

استيقظت ماريئا مبكرة في الصباح التالي. وكان الذي أيقظها غناء طير ألغ في غناؤه وهو واقف على شجرة قريبة من المنزل. فارتدت ملابسها بسرعة ولكنها لم تغفل أزرار القميص بل ربطت حرفيه فدا جز. من وسطها عارياً. ثم فتحت الأبواب وأزاحت الرتاج. وأصبحت طليقة كالطير في ذلك الصباح الذهبي. وفتحت بلسعة الهواء. وشعرت بالخشاش المبلة بندى الصباح تداعب أصابع قدميها.

وانتقلت عينا ماريئا إلى المنزل. وبحثت في النوافذ ولكنها لم تجد أي شخص يراقبها فخلعت صندوقها وألقت به جانباً. وفتحت بلمس الخشاش الحضراء الناعمة المغطاة بالندى. تحت قدميها. وجلت الكاميرا فوق كتفها وقصدت منها هارفورد. لكنها لم تدخله بل صممت أن تفعل ما كانت تمناء وتفكر فيه وهي جالسة على مقعدها بجانب هارفورد. وذلك أن تذهب إلى الغدير.

جلست ماريئا على البرّ وشمرت سائلي البطلون ثم أنزلت قدميها في الماء. وهي تجر على أسنانيها ليرودته. وراحت تجلم بينها الشمس تدق. ظهرها وتلمع في شعاع يزل من بين الأغصان ومن خلال جذوع الأشجار المحيطة بها. وأخذت تفكر... إن البروفيسور لا يمكنه أن يفعل ما تفعله الآن. فهناك فترة طولها ثمانية وعشرون عاماً بين عزميها.

وسمعت صوت أقدام فالتفتت بسرعة. هل هو هارفورد؟ لا بل ابنته وبما أنها

كانت جالسة على الأرض تضاعف طولها وأحاله إلى عمود هائل من الرجولة. وكان قميصه محلول الأزرار يقطسي يديه اللتين أدخلهما في جيبسي بتطوئته... كما كان مفتوحاً يكشف عن صدره الذي كساه الشعر البني الغزير. ولاحظت عرضه ورجولته الجريئة. ورفعت نظرها نحوه. فكان ما رأت حركه وترأ من الشفقة في داخلها. وراح هذا الوتر ينض ويبتوي بشكل لا يحتمل فهو لم يذق النوم تلك الليلة.

وسألها:

«ماذا بك؟ هل أنت خائفة. لن أفعل بك ما يخافه والذي فأرغمك على طاعتي وأغريك»

ثم هز رأسه ورجع يقول:

«اطمئني. فلأنتي عندما أنفذ هذا العمل البربري فسوف أتأكد أولاً أن يكون لدي المزيد من القوة عن الآن. فبعد أن قضيت الليل جالساً أمام مكتبي. لن أحتاج إلا إلى النوم. وليس العلاقات الغرامية»

وظلا فترة صامتين وكان سكوتها يتخلله غناء الطيور. ولكنها أرادت أن تنهي ذلك الصمت فقالت:

«إنه صباح جميل»

ولكنها لم تجد صدى للمحروقتها العادية. ثم ردة عليها وقال بدون حماسة:

«نعم...»

«كيف عرفت أنني هنا؟»

«كنت أراقبك من النافذة»

«ألم تتمكن من النوم؟»

«أنا لم أحاول ذلك»

«ولكن كيف تقضي النهار وأنت لم تنم الليل؟»

فرفع كتفه وقال:

«أنا معتاد ذلك ويمكن للمرء أن يستغني عن أي شيء عند الضرورة»

ثم تمدد على الأرض ووضع يديه تحت رأسه وقال:

«ويمكن للمرء التأقلم على الاستغناء عن أشياء كثيرة.»

ولم تتأكد ماريتا من معنى كلامه لكنه من ثمانية ذلك الوتر الحساس من الشفقة الذي يكمن بداخلها، ولكنها عجبت لشعورها بالشفقة نحو ذلك الرجل القاسي الأناني، فقالت له هامة:
«تقصد والدتك؟»

ثم التفت إليها فرأت عينييه الرماديتين كسهاء الشتاء تنظران إليها ببرود وقال:
«السؤال في غير محله.»

شعرت ماريتا بالخرج، وأرادت أن تصلح من خطأها فقالت:
«على الأقل إن لك أبا.»

فرد عليها بلا حماسة يقول:
«وهل لي أب حقاً؟»

ثم مرّت فترة صمت. فوضعت ماريتا ذقنها على ذراعيها وسمعتته يقول:
«إنه فقد عقله لأجلك.»

وبذلك ألقى إليها بالتحدي، ولكنها لم تشأ أن تقابله بمثله، إلا أنه عاد يقول:
بالخارج:

«ماذا تنوين عمله؟»

وبدلاً من أن ترد قالت:

«أنت مخطئ». إنه يعتيرني صديقة له. ورفيقة مسلية»

«وذلك العناق الليلة الماضية. هل يدل على أنه يتخذك رفيقة له؟»
ولم تعترف أنه على حق فقالت:

«فعل ذلك ليثيرك.»

فرفع رأسه وقال:

«ليثيرني؟ هل تقصدين ليثير غيرتي؟»

ثم أغلق عينييه وتفرست شفتاه في سخرية.

«إنك مغرورة بنفسك. فلماذا أهتم بفتاة نصف متعلمة غريبة... هي مجرد مساعدة صغيرة في العمل.»

ثم هبّ واقفاً وأمسك برسغيفها بيدين كمخالب الطير الجارح ودفعها فوق رأسها. وقال:

«أيتها الماكرة الشريرة... حاولت أولاً أن تغري والدي. والآن تحولين اهتمامك إليّ؟ فأيا متاريدين؟ فكري في ذلك.»

ارتجفت شفتاها وانثقت الدموع من عينيها... كيف لا يفهمها! فهمت تقول:

«أرجوك، إنك تؤلني.»

ولكنه تظاهر بأنه لم يسمعها وقال:

«متى تتوبين أن تتركي والدي وشأنه.»

وأخذ جسمها يتقلص وتحاول الإفلات منه ثم قالت:

«إنك مخفطى.. فالأمر عكس ما تظن.»

وبقي ممسكاً بها لا يود أن يتركها ولكنه قال:

«ولكنك لا تمانعين في اهتمامه بك؟»

فهمت تقول:

«ولماذا أمانع؟ انه رجل طيب وعادل وأمين وشغوف بي.»

«وطبعاً هذه الصفات لا اتصف بها.»

«نعم. لا تتصف بها فأنت قاس لا تحتمل وأنت...»

لم تكمل عبارتها لأن قلبه قد اسكتها.

وكانت تخاف الخطوة التالية. فأرادت أن تقف ولكنه وضع ذراعه على عنقها

فأبقاها راقدة، ثم نظر إليها وإلى شعرها المنسل وعينيها اللوزيتين وإلى فمها

المكشّز. وتعلقت عيناها الرماديتين بعينيها الرماديتين. ثم ضحك فجأة وأخذ مزاجه

يتغير. وقال لها:

«كفي عن العراك معي أيتها الشريرة. وارقدى هادئة بجانبى.»

ثم مد ذراعه تحتها وجذبها بقوة وتنهّد بارتياح وهو يدفن وجهه في شعرها

ويستشق عبيره قائلاً:

«مضى زمن طويل لم أتمتع فيه بالسوى مع امرأة.»

شعرت بالاثارة، فأرادت أن تتخلص منه ولكنه أبداها بسهولة فلما كانت مترسلة:
«أرجوك يا رايان، هذا خطأ إذ لا يجب...»

لرفع ذراعه ووضعها على وسطها وقال:

«اصمتي، أريد أن أشعر بالسلام، هذا كل ما هناك».

وكان سهر الليل كله قد أجهدته فنام لتوّه، ولكن ذراعه التي طوقت ماريئا لم تثبت فطلت ممسكة بها، ولكن بركة... وأمسكت عن التنفس خوفاً من إفلاقه. وسمعت وقع أقدام تقرب، وبما أن أذنها كانت بجانب الأرض أمكنها سماعها بوضوح. وكانت الأقدام قاصدة مكانها، وطلت أنها أقدام هارفورد قاصداً المحيا.

فجاءت حتى تخلفت من ذراع رايان ثم جلست وابتعدت قليلاً عن جانبها.

ووقف هارفورد ينظر إليها... ينظر أولاً إلى ولده النائم ثم إليها فحيث أنفاسها وسمعته يقول:

«لماذا أجذك هنا؟ فإقتارك ينتظرك».

وتساءلت عن مدى فهمه أو تأويله لما رأى. فصمتت أن تقول الحقيقة.

«استيقظت مبكرة يا هارفورد، ولم أقاوم الخروج واستقبال الشمس في الصباح الباكر».

«ورايان»

«وكان رايان يعمل طوال الليل... فلما رأيته لحق بي. وبما أنه لم يغمض له جفن فقد نام كما نرى».

هز هارفورد رأسه وبدا كأنه اقتنع بما قالته. ثم سمع رايان يهمس وهو يتكلم في نومه ويقول:

«أين ذهبت تلك الفتاة؟ تلك التي كانت بين ذراعي؟»

ففزعت ماريئا ونظرت إلى هارفورد وقالت:

«إنه يحلم يا هارفورد، ولا بد أنه يفكر في صديقته».

ثم حاول رايان الوقوف وهو يقول:

«ها هي».

تسهرت ماريئا وقالت:

«والدك... والدك هنا يا رايان».

تركها رايان ومسح وجهه بيده ثم ابتسم وهز رأسه في حيرة وقال:

«إنني أجزم بل أقسم أنك كنت راقدة بجانبني».

ثم أفاق واستيقظ غاماً ورجع يقول:

«إنني أقسم أنها أنت».

فوقفت ماريئا مضطربة وقالت:

«يا رايان، إنك تحلم بصديقتك».

ثم رقد ثانية وارتكز برأسه على ذراعه وقال:

«نعم، كنت أحلم ولكن بغير دورين».

وابتسم ثانية وهو يستمتع باضطراب ماريئا.

ثم نظرت ماريئا إلى هارفورد وأرته الكاميرا وقالت له:

«أنت كمي أسوّر الطيور يا هارفورد، ولكن رايان وصل قبل أن أبداً في التصوير...».

فزال التوتري الذي اعترى هارفورد وقال:

«يا عزيزتي ماريئا... لو كنت قد أخبرتي بفرضك للعلقت بك بكل سرور... بعد تناولك الإفطار».

ثم قادها إلى المنزل وهو يطوق كتفها بذراعيه.

ولما ارتقى الدرج تركها هارفورد أمام غرفة الطعام وقال:

«تتناولي إفطارك ثم تعالي إلى المحيا حيث تمهدتني...».

ووجدت نفسها وحيدة مع رايان في غرفة الطعام. فقال وصوته مملوء بالسخرية:

«يا إلهي، لقد تصرفت بمهارة. هل كنت معي لتصوري الطيور؟ إنك فكرت بسرعة فائقة، وأنا انحنى لك بالرغم من أنك فتاة ذات تفكير محدود ولست متعلمة».

ولما استفزها حاولت الوصول إليه لتصفعه ولكنه أمسك برسها وقال وعيناه
تبرقان:

«إنتي أملك الدليل هناك وسوف أستعمله عندما يأتي الوقت المناسب.»

ولما شعرت بالألم أفلنت من قبضته وقالت:

«قلت الحقيقة لأني كنت أنوي التصوير فعلاً. ولم اخترع هذه القصة. وبما أن
تفكيرك مشبوه نظن أن الكل له مثل هذا التفكير.»

وبحركة آلية هجم عليها ولكنها تراجعت إلى الوراء في الوقت الذي فتح فيه
الباب ودخلت السيدة فيسك حاملة صينية عليها أطباق الاقطار فجلس
أمامها والتفت الشوكة والسكين ثم نظر إلى ملبسه وهب واقفاً وقال:

«معلنة لوجوبي على المائدة وأنا نصف عار. فهل تحذرين جلوتي؟»

ولم تتمكن من أن تحذو حذوه وتقلل أزرار القميص لأنها لو فعلت لا بد أن
تحمل ربطة القميص أولاً. فهزت له رأسها واستمرت في الأكل
ولكنه قال لها وهو ينظر إلى كتفه:

«انظري إلى أثار المخالب هذه ودققي النظر فيها. لقد أصبت بها هذا الصباح من
إحداهن عندما فقدت السيطرة على شعورها. ألا يحسن بك الاعتذار؟»

فانتابها ألم لأنه أدهشها واعتذرت له. واستدارت ولكن يده امتدت وجذبت
فراعها وسمعته يقول:

«إذا كشفت هذه الآثار لوالدي فإذا يظن بك. هل يظن أن احداً لم يمك؟ وأنتك
بريتة؟ هل يؤد عنائك ثانية؟ فلا بد أن يدفعك إلى الوقوع معه في المشاكل إذا
اكتشف أنك تذهبين مع ابنه في مزاحك إلى حد الحدش والقتال.»

«كيف تغير الحقيقة إلى نوابك المحسنة. وانت السب.»

ثم تركته واتخذت مكانها ثانية على المائدة وسمعته يقول:

«إنك في قبضي الآن فهادي في علائقك الغرامية مع أبي...»

قبلت ماريتا رقها الفاحم. وجلست في مقعدها. أنه يستفزها الآن عبداً
وجلس في كرسيه وقال لها:

«أرجو أن تعذري هذه الملابس فإذا تنتظرين من رجل البترول الجاف.»

ثم نظر إلى بلوزتها وقال:

«في أي حال إن ملاسي تشبه ملاسك. فإذا أمكنك الجلوس إلى مائدة الطعام
وأنت تكشفين عن جسك فيمكنني أن أفعل المثل.»

ثم سكب لنفسه بعض القهوة ولم يقدم لها شيئاً منها. وبعد ذلك أخذ يقرأ
الجريدة ولم يتكلم ثانية إلى أن قامت ماريتا لتغادر الغرفة وهنا قال:

«سوف أذهب إلى نورويتش بعد الظهر لأنني بالكاميرا التي أتلفتها. هل
تودين الذهاب معي.»

«لا وشكراً. فإن لدي أشياء هامة لآنجازها.»

وكان ردها بارداً.

«كما تريد.»

ولم تفعل شيئاً معها كما أخبرته بل خرج هارفورد أبشاً ولم يخبر ماريتا
ولكنه أكد لها أنه راجع للعشاء. واختفى رايان أثناء الصباح وقدرت ماريتا
أنه قد تناول طعام الغداء في مكتبه.

ودق جرس التليفون بعد الغداء مباشرة فتلأت السيدة فيسك على رايان
وسمعه ماريتا يقول: «دورين.»

وطالت فترة بعد الظهر. وكان هارفورد قد أعطها مزيداً من الكتب عن
حياة الطيور فأخذت تدرسها لمدة ولكنها ألقتها جانباً وقصدت النافذة وذلك
عندما اكتشفت أنها لا يمكنها التركيز. ثم نظرت إلى الساعة وعرفت أنه الوقت
الذي ترجع فيه والدتها من عملها. وكان هارفورد قد أذن لها في استعمال
التلفون كلما أرادت ذلك. ففكرت أن تتصل بها تلفونياً. وسألته والدتها:

«هل تخرجين للزيارة. وهل تزورين الريف.»

«إن هارفورد مهتم بمراقبة الطيور ولذا لا تخرج كثيراً. ولكنني ذهبت إلى
نورويتش مرة وأسطحني رايان.»

«رايان؟ أنا سعيدة لأن معرفتك به زادت. وهل هو لطيف معك يا عزيزتي؟»
«لطيف معي.»

ليت والدتها تعلم. ثم قالت لأمها:

«إنني لا أراه كثيراً»

ثم أردفت تقول:

«إنه يجمع العمل بالاجازة. وقد ذهب بعد ظهر اليوم ليقابل صديقه».

فردت جوزفين تقول وقد ضعف صوتها واعتزته خيبة الأمل:

«صديقه؟ فهمت».

وكانت ماريينا تعلم مدى تفكير والدتها. فلا بد أنها تفكر وتقول «كيف يحق لأي إنسان أن يفضل امرأة أخرى على ابنتي؟»

ولكن كل ما قالته جوزفين هو:

«حسناً هل تريد أن أحضر للقامة عندك يا عزيزتي».

إن فكرة زيارة والدتها أصبح أمراً مرغوباً الآن.

وأردفت والدتها تقول:

«أنا مشغولة الآن ولكن ربما أحضر الأسبوع المقبل أو الذي بعده. وربما».

ثم أنهت ماريينا المكالمة. ثم سمعت صوت سيارة هارفورد. فذهبت إلى غرفة الاستقبال لتنتظره. ولما دخل الغرفة برقت عيناه وابتمس. ثم قال:

«عندى شيء لك».

ثم أخذت الرزمة الصغيرة منه وراح يراقبها وهي تفتحها وتقول:

«هدية أخرى؟ ولكن يا هارفورد لماذا؟»

ولما فتحت الزجاجة وجدت زجاجة عطر ثمينة وكان عطراً مشهوراً غالي الثمن.

قدمت عيناها وقالت وهي تحاول استعادة توازنها.

«أنا شديدة التأثر يا هارفورد كيف؟»

«طلبت أغلى عطر في المحل فأعطوني هذا الصنف. فهل أعجبك؟»

«كيف لا يروق لي وأنا أدري بقيمته. ولكنني لم أقربه. ولم أشمه قبل ذلك فهو عطر جميل رائع. وسوف أستعمله عندما أبدل ملابس لي للعشاء».

ثم هز رأسه إليها راضياً ثم قال:

«أنا قد اشتريت لنفسى عدداً من الملابس الجديدة فمرآتي قد ملت من عكس صورة ذلك الأستاذ الجامعي غير المهتم».

وضحكا معاً. وقال:

«إنك لطيفة يا ماريينا، وأنت كل ما...»

ثم كفَّ عن الكلام وهزَّ رأسه وكأنه يعتف نفسه.

وكانت ماريينا ترتدي وقت العشاء ثوباً مفتوح الرقبة. وتلعتنت بشال

رايان واستعملت عطر هارفورد. أما هارفورد فقد أبدل ملابسه أيضاً.

ولدى دخوله شرفت دهشة فقد اختفى مظهر البروفيسور المهمل. وبدأ كأنه يساير

العصر. ومع تغيير ملابسه تغيرت كذلك تصرفاته فأصبح أقل تحفظاً وأكثر

وعياً للأحداث التي تحيط به بدلاً من حبس نفسه في عالم خاص به.

فقالت له ماريينا وهي معجبة بشكله:

«إنك رائع».

«إنني سعيد بذلك».

ثم قالت وهي تشير إلى معصمها وعنقها ولحت أذنيها:

«لقد استعملت عطرك ورائحته رائعة جداً».

ثم سمعا صوت سيارة أمام البيت.

فنظر هارفورد إليها. ولاحظت أنه شذب لحينه. ورفع يدها وقال:

«هل تسحين لي؟»

ثم انحنى على عنقها وأخذ يستنشق عير العطر فأخذت ماريينا تقارن بين

رقته وحنانه وخشونة ابنه.

ثم فتح الباب. ولكن هارفورد لم يبال فقد تم رقبته بخفة

وشعرت ماريينا بالاحراج. ثم أخذ الابن ينظر إليها بينما كان الأب يلمس

رقبتها. فشعرت بنظراته اللافحة.

فهمست ماريينا قائلة في اضطراب:

«هارفورد»

فاستقام هارفورد والنفت إلى ابنه.

فأشعرت عينا رايان دهشة ثم هافتنا رأى ملابس والده التي لا يصدقها

غلل.

ثم قال والده وهو يتشم:

«هل نثر ملاهي الجديدة، أنفقت في سبيلها مالا كثيراً».

فرد عليه ابنه قائلاً:

«ألى هذا، السيدة لا تتمتع الآن وقد نقصت عشر سنوات من عمرك. فاستمر في حيلك حتى نجعلها تظن أنك أكبر منها بشهاني عشر عاماً وبانك في الثانية والأربعين بدلاً من الثانية والخمسين».

«إنني أقدر غشيتك في بالرغم من التوائها».

فقال ماريتا نلطف الجو:

«لقد أهداني والدك عطرأ يا رايان، وهو رائع. ولم أحصل على مثله من قبل».

«إنني أشم رائحته. فهو يلوث الجو».

فدخلت السيدة فيسك الغرفة تعلن تقديم العشاء. وكان الحديث أنشاء العشاء يدور بين ماريتا ومضيفها. ولم يتكلم رايان إلا بعد تقديم القهوة. فقد قال لماريتا:

«أرجعت الكاميرا التي تسببت في كسرها، فقد أصلحت».

وتحس جويوه وأخرج منها ورقة ألقاها نحو ماريتا وقال:

«هذه فاتورة الإصلاح».

فحس والده وقال:

«ولماذا تعطينا إلى ماريتا».

«لأنها عندما كسرت الكاميرا قالت إنها سوف تدفع ثمن إصلاحها وأنا أطلبها بوعدها».

«ولكن لا يمكنك هذا العمل، فهي سيقتنا، ولا بد أنه كان حادثاً عقوباً بالرغم منها».

«نعم ولكني حذرته بأن الإصلاح يتكلف كثيراً فأصرت على ذلك. ولذلك قدمت لها الفاتورة».

ولما أخذت ماريتا الفاتورة لم تحف دهشتها للثمن المطلوب. ثم قال لها رايان:

«لقد حزنك، فهل تنقضي وعدك».

فملاً وجهها الحجل وقالت بجهانة:

«سوف أدفع طالما أعطيتني الوقت لذلك».

فخطف هارفورد الورقة من يدها وقال:

«إنك لا تنتظر منها أن تجد كل هذا المبلغ ولن أسمح لها بدفعه. بل سأقوم أنا بدفعه وإنني مشتمز من تصرفك لأنك سببت لها الأحرار».

ثم وقع شيكا وقال:

«اعتبر الأمر منتهياً».

فأخذ رايان الشيك ومزقه ثم القاه نحو ماريتا وخرج من الغرفة ولم يعتذر هارفورد لما بدا من ابنه.

وبعد برهة سمعت ماريتا هارفورد يقول:

«إذا كان الجو معتدلاً غداً، سأذهب إلى بيركلاند وهي تحدنا من الجنوب. وهي منطقة جرداء مفتوحة والباقى غابات زرعت أشجارها من مدة قصيرة. وأريد أن أقصدها لتسجيل أغاني الطيور فهي غنية بحياة الطيور منذ زمن طويل منيت نفسي بالذهاب إليها مع جهاز تسجيلي. فهل تأتوين معي لأريك المنطقة».

وشعرت ماريتا أنها لا بد أن تفتنم هذه الفرصة لرؤية الريف، معها قال في ذلك ابنه. ولما قالت إنها موافقة سر لذلك ولثم وجنتها قائلاً:

«لا بد أن أقوم ببعض أعمالي فني انتظري رزمة رسائل للجامعة لا بد من الرد عليها وسأرجع لتؤي».

وتبعته ماريتا إلى البهو ولما أوصد باب المكتب وراءه، نظرت إلى شعار العائلة المعلق فوق المدفأة وترجمت الأصل اللاتيني في ذهنها وتذكرت المعنى الذي ينطوي عليه.

دخلت غرفة الجلوس. ولكن الغرفة لم تكن خالية بل وجدت رايان فيها. وقف قائلاً:

«لا تهربي. لن أمزقك كما مزقت الشيك ولو أني أود ذلك. اجلسي».

وأشار إلى أحد المقاعد. ثم أخذ ينظر إليها.

«إنك تكسب الكثير من عائلة تيودور. فالانتظار والكاميرا والعطر من أبي ثم هذا الشال الذي يطوفك مني.»

خلعت الشال ولذقت به وسمعته يقول:

«خذ الشال لا أريد.»

لكنها شعرت بالبرودة فودت أن تستعيده ثانية.

غير أنه التفت الشال ووضعها على أحد المقاعد وقال:

«لا فائدة منه لي الآن فلن أفك من إعطاء صديقتي أشياء مستعملة.»

زمت ماريينا شفتيها وهي تحاول إخفاء غضبها. ثم قال لها:

«مازلت أسأل عن السبب الذي يمكن وراء دعوة والدي لك فهو لم يتورط قبل

ذلك في علاقات غرامية سرية. ولكن في هذه الأيام قد يبدأ الشخص في سن

متأخرة.»

وحاولت ماريينا جاهدة أن تتلأق وفورعها في شرك الغضب.

وأردف يقول:

«أبي يعمل كل جهده ليبدو أصغر من سنه وكل ذلك لأجل فتاة تدعى ماريينا

نيويل. فهل باع نفسه للشيطان كما فعل فاوست لما أحب مارغريتا

الحسنة! إذ اتخذ لنفسه شكلاً جديداً وذلك بشراء ملابس جديدة ثم يتباهى بها

كأحد طيور المحبوبة وهو يستعرض ريشه لأغراء الأثني.»

ثم وقف أمامها وقال:

«وهل تعرفين أن في بعض أنواع الطيور يستعرض الذكر أمام الأثني وينتفش

ريشه ويقرج جناحيه.»

هبت ماريينا واقفة وقالت:

«كف عن قسوتك علي والدك، فهو رجل طيب وغير أناني.»

«هذه لعبة منك سمعتها من قبل وأنت تقولين إنه لطيف. وحنون. وكرم. بل هو

أبله ويعيش في الأوهام وقد فقد عقله.»

«هل أنت متحيز ضده لأنك تكرهه.»

ولكنه صاح يقول:

«إنني لا أكره والدي.»

ثم ردت عليه تقول:

«حسناً ولكنك متحيز ضده - لأن - لأن - لست أدري السبب ولكني ألاحظه في

معاملاتك معه.»

«صديقتي إنني أعرف والدي تماماً وأعرف ما أقول.»

«ذلك لأنك قريب منه وأنا غريبة عنه فأراه كشخص منفصل عني.»

«وهل هذا صحيح، لا أظن. وذلك لأنك في عملك تعدين مجرد لا شيء. إذا قورنت

بهارفورد تيودور الرجل الذي يتبوأ القمة. ولا يعني كيف تسمين العاطفة

التي تشعرين بها نحوه في الحقيقة ليست إلا تقديس البطولة.»

فصاحت تقول:

«إنك مخطئ. إنك مخطئ جداً.»

«إذن أنت تعفين في حبه. في حب أبي وهو يصلح أن يكون أباً لك! وبحق السباء

إنك محتاجة إلى أحد ليعيد لك عقلك.»

وأمسك بذراعها ولكنها نزعت نفسها منه وقالت:

«هل تفكر في درس آخر تلقيه علي! ذلك الدرس الذي هددتني به إذا لم ادع

والدك لتأثبه. لن أعطيك هذه الفرصة. ولن تقترب مني لتتال ماريك.»

ثم قال لها:

«لا تكوني واثقة من ذلك. يا فتاتي مع أبي ابتعد عنك. فقد نقد صبري.

ويمكنني أن أهشمك وألطيخ سمعتك وفي هذه الحالة سوف يشتمر أبي منك ولن

يرغب فيك بعد ذلك.»

«إنك كرم ولا تحتمل.»

ثم قال لها:

«أنت تعرفين أنني رجل بترول خشن فإذا تنتظرين مني!»

وبذلك تغلب عليها ففرت من الغرفة هاربة.

وتركها هارفورد كي يبلغ رايان بالفكرة.
ولما فرغت من طعامها رجع هارفورد وهو يقول وقد بدا عليه الاحراج:
«قبل رايان الذهاب. لكن يفضل الذهاب بمفرده. لكنه سوف يفكر في الأمر
ويغيرك برأيه».

ثم تقدم هارفورد نحوها ووضع يده على شعرها وقال:
«أسف لتصرفه يا ماريانا».

وأخذ هارفورد خصلة من شعرها وراح يتأملها ويقول:
«إن لك سحراً يا عزيزتي. فيستك التآثير عليه كي يصحيك معه».
ثم أدار وجهها إليه، وقال:

«يا فتاتي الجميلة. سأفتقدك اليوم. ولكنني سأهرع إليك في المساء لتبادل أطراف
الحديث».

ودخل رايان ثم خرج هارفورد وابتم إلى ماريانا ووقع يده إليها
مودعاً.

وانتظرت ماريانا أن تسمع موعظة من رايان ولكنه لم يفعل. بل أخذ
مكانته الى المائدة ولم يتكلم إلا بعد أن ظهرت السيدة ليسك حاملة الطعام
فشكرها بلطف. ولما ذهبت ساد الصمت ثانية.

وأصبح الموقف لا يحتمل. وأرادت ماريانا معرفة رأيه فقالت له:
«رايان؟»

نظر إليها بيروء. ثم عاد يقرأ الجريدة. فهل قصد أن يجعلها معلنة لا يعطيها
جواباً؟ وعادت تقول:

«رايان».

فرد وعيناه لا تفارقان الجريدة:
«نعم».

«أنت تعلم ما أردت أن أسألك عنه».

طوى الجريدة ووضعها جانباً وشبك يديه على المائدة وقال وهو يتبسم:
«أنا لا أعلم. فالحيرتي».

٧ - المواجهة المرة

رن جرس التليفون بينما كانت ماريانا ترتدي ثيابها. ولما نزلت للافطار رأت
هارفورد جالساً في مقعده فقال لها:

«لست المخط يا ماريانا جاءني مكلمة هامة من وكيل في الجامعة. ويبدو أن أحد
كبار رجال التعليم في الحكومة أعلن أنه سوف يزور الكلية اليوم وبما أنه من
كبار رجال الدولة لن يمكنني رفض طلبه».

ابتسمت وقالت وهي تداري خيبة أملها:

«لن أخرج معك اليوم لقد ربما في وقت آخر».

ونظر هارفورد إلى النافذة فرأى السماء صافية فقال:

«الفرص مهيأة للتسجيل. ومن المؤسف أن تترك هذا المشروع. فإذا أقنعت
رايان أن يقوم بهذا التسجيل لأجلي، هل تذهبن معه؟»

فخرج مع رايان؟ وبعد عراكها القوي ليلة أمس؟ ثم سألت هارفورد:
«عني يجب الذهاب؟»

«أشك في قدرته على قضاء كل الصباح هناك. فإذا وافق على الفكرة أظن أنه
يختار بعد الظهر».

هزت كتفها وقالت وهي تفكر: إذا كان رايان ذاهباً إلى هناك فلم لا
تصحبه؟ على الأقل يمكنها رؤية الريف.

ثم قالت:

«سوف أذهب معه».

كان يستمتع بأهانتها ويحاول أن يجعلها تستعطفه كي يصحبها
«هل أنت... هل نحن؟»

وانتظر أن تكمل كلامها، فدأبت على كرامتها وحاولت السؤال ثانية:
«هل أصبحك بعد الظهر في الذهاب إلى الريف؟»
«ولماذا تصحيتني؟»

قالت وقد نجح في أن يضعها في موضع الالتحاق:
«أريد اغتنام الفرصة لأرى المنطقة قبل رحيلي»
«ولكن أمامك الحياة بطولها لتفعل ذلك»

ونظر إليها فرأى الحيرة والدعشة في عينيها، ثم قال:
«إذا كان الأمر قاصراً على رؤية الريف فلي إمكانني أن أقوم بدور الدليل ولكن
يجب الذهاب هذا الصباح، فاستعدي على الفور والآ تركتك وذهبت»

كان الجو دافئاً فارتدت مارييتا بتلوناً خفيفاً وبلوزة رقيقة وقصيرة، فلما
نظر إليها، ردت على نظراته بنظرة أقوى، ووضع رايان سلة الطعام في السيارة
ثم قال حازماً:

«الذكر عادة في دنيا الطيور يستعرض عفاسته وليس العكس، وفي كل حال
فالذكر الذي يرغب في جذبته ليس موجوداً الآن، انك تضعين وقتك في ارتداء هذا
الزى»

«لعلك إنني لم أرتد زياً، فالجوّ حار والأصح أنني تعريّت»

«إنك تدهشينني، فإذا تعريّت أكثر من ذلك قد تثيرين رغبتي وعندئذ تجابهين
الثنين من آل تيودور بدلاً من واحد. ولا بدّ من اختيار واحد منها، فهل
تختارين الأب الذي، بالرغم من تقدمه في السن ما زال يمتلك الحيوية التي
تجعلها يسعد أية امرأة كما أن رأسه في السماء ومنزلته في دنيا التعليم عالية
ومؤهلاته هائلة، كريم لا يسه جمع المال. أما الابن فحيويته لا جدال حولها،
ومؤهلاته توازي مؤهلات والده ووظيفته ذات مسؤولية، ولكن هناك ناحية فيه
ذات خشونة وقسوة تجعل الفتاة البريئة الصغيرة تصعق من الحجل والاحراج»
ثم غير موضوع حديثه وأصبح جاداً، فسرده عليها تاريخ المنطقة التي

يسرون فيها وقال:

«هذا هو شرق أنغليا، يحدها البحر من الشمال والشرق والمستنقعات من الغرب،
أما من الجنوب فتحدها غابات من أشجار البلوط وبعد ذلك تركا الطريق
وانعطفنا إلى مساحة مسطحة من الأرض على حافة أرض بور، ولم يجدا مخلوقاً آخر
هناك غيرهما، فقال رايان وهو يغادر السيارة:

«هذه الجهة أقل المناطق سكاناً في البلاد كلها، واسمها بيركلاند وقد رأى
الوافدون القدماء أنها صالحة للزراعة بسبب جفاف تربتها وجفاف مناخها»
ثم حمل رايان جهاز التسجيل المعلق على كتفه وحمل سلة الطعام في يده
وسارا نحو الغابة صامتين. كان يبدو وكأنه يستاء لوجودها معه. وكانت تصرفاته
مؤدبة ولكنها باردة.

ولما وصلا إلى قطعة خالية من الأشجار في الغابة، ألقى بسترته على الأرض
وقال:

«اجلسي عليها واتركي لي مكاناً بجانيك»

وكانت السترة تسع اثنين ولكن لما جلسا تفاربت أكتافهما فودت مارييتا أن
يكون مزاجه أكثر اعتدالاً. وكانت ذراعه تلمس ذراعها فتجعلها تشعر بالوخز لأن
هذا التلامس يجعلها تحس بالتجاوب معه.

ثم راح يعد الجهاز للعمل ورفع رأسه وقال وهو ينتصت:
«هذا هو الليل»

فاستمعت للصوت الرخيم وقالت:

«هل يغني الليل أثناء النهار؟»

«نعم كثيراً ما يغني أثناء النهار، ولن أسجل صوته فلا بد أن والدي قد فعل ذلك
من زمن مضى»

ثم استمع ثانية وقال:

«سأسجل صوت هذا الطائر. أحياناً يغني وهو يحوم وغالباً عند طيرانه. ولولا
اشتغالي بالتسجيل كنت أشرت إليه حتى تنعري عليه فهو أزرق يميل إلى اللون
الرماني وهو لون الذكر أثناء الصيف»

«كيف أنتك كل هذه المعرفة عن الطيور؟»

«إني أهتم بها. فالكثير من معرفة أبي انتقل إلي في غفلة منه.»

«وإذا كانت هذه هواية متبادلة فلم لا تقرب بينكما بدلاً من التناحر كل الوقت؟»

وكان هذا سؤالاً لاحقاً لها في طرحه فأنها تثير به اللقلق.

فرد بسرعة قائلاً:

«لا شأن لك بالطريقة التي أتعامل بها مع والدي. فأنت لست فرداً من الأسرة

بعد، وإذا كان الأمر بيني فلن يحدث ذلك.»

وأشار إلى عصافير العرف الذهبي فحاولت ماريتا أن تراه ولكنها فشلت

فقال بتهكم:

«أرى أنه ليست لديك القدرة على مراقبة الطيور. وهذا ما يهز الأحلام التي بناها

والدي حولك.»

«إنه لا يدري ذلك. فأنا أنظأه أمامه بالمعرفة.»

فضحك وقال:

«وهل تظنين يمكنك خداعه، إنه خبير. والخبراء دائماً يميزون الذين يقولون

الصدق.»

فملاً وجهها الحجل حين فكرت في المرات التي خدعت هارغورد فيها.

ثم قالت:

«يمكنني أن أميز الأنواع المختلفة من الطيور في الصور. ولكنني أتعثر عند

رؤيتها في أماكنها الطبيعية، فإنها تتحرك بسرعة فائقة وأجد صعوبة في العثور

عليها بالنظر.»

فضحك عالياً ثم هز كتفيه استخفافاً وقال:

«هذه مشكلتك ولكني لا أعرف أي سحر يمكنك أن أساعدك به. وإذا عرفت فلن

أبوح لك. فأنت تورطت مع أبي في هواية الطيور ولأي غرض؟ لا أدري. ولكن

يمكنني أن أضمن شيئاً.»

«هل يجب أن تكون قاسياً دائماً؟ لم لا تكون لطيفاً معي؟ إنه يوم جميل وهو يعد

إجازة لي.»

وإذا كانت تظن أن هذه الكلمات الشاكية يمكنها أن تهز بهي واهمة فقد

أمرها بالسكوت وأدار جهاز التسجيل.

نظرت حولها في حيرة فتساءلت عما لفت نظره من الطيور أو سمع من غناء. ثم

رأت طيراً يقف في النضاء يلف ويدور غارداً ذيله ويرشه بني منقوش، يميزه

متقار الطويل المستقيم الذي يحفر به الأرض.

وسألها رايمان:

«هل رأيت الطير؟»

فهزت له رأسها بالإيجاب وقالت:

«شكراً لك. سأذكره دائماً بمنقلبه المميز.»

«أفمن سوف تتباهين بما أضفته إلى معلوماتك. وما لا شك فيه أن أبي سوف

يكافئك بهدية أخرى.»

ثم التفت إليها وقال بتهكم:

«ربما كانت سبابة هذه المرة.»

فسألت قائلة:

«وإذا فعل وثبتت هديته فماذا تفعل؟ هل تعاقبني كما عاقبتني من قبل. وتعطيني

درساً آخر إذا لم أذع والدك وشأنه؟»

أزاح جهاز التسجيل بكل حرص واستدار إليها ففزعت لما رأت في عينيه من

صلاية وبرودة. ثم هس يقول:

«هل تتحديني؟ وهل تظنين مني أن أزرع بوعدى؟ هذا ما توقعته، فإني على

استعداد أن أقبل هذا التحدي. لأني واسع التجربة في عالم الاناث فأعرف

معنى التشجيع عندما أراه.»

وبحركة سريعة ألقاها أرضاً. ثم استدار وردد بجانبها ووضع يده على

وسطها.

حاولت التخلص منه، ولكنه كان غافلاً عنها يحاول أن يملئ إرادته عليها

ويجبرها على الخضوع حتى إذا طلبت الرحمة فلن يوافق بها. فشعرت أن قوة

مقاومتها تنحسر ويحل محلها تجارب عميق له. وكانت كل حركة تقوم بها تلقائية

وغريزية. وشعرت أنها في دنيا غريبة بين الحقيقة والخيال. الخيال يبين لها أن الرجل يكن لها الحب أما الحقيقة فتدل على أنه ينتقم من والده ومنها فراح يؤلمها. ونجح في أن يعزز في قلبها الشوق إليه. ثم رآها تبكي فقال لها:

«كفي عن البكاء».

ولم ينطق بكلمة اعتذار أو طلب العفو منها. ولم تنتظر منه ذلك لأن له قلب من حجر. ثم جلست وأزاحت شعرها عن وجهها ومسحت دموعها. ورأته يفتح سلة الطعام التي جهزتها السيدة فيسك ثم سمعها تقول:

«إني أسفة، لا يمكنني أن أقرب الطعام».

هز كتفيه واستمر في إفراغ سلة الطعام، فأتت أن السيدة فيسك جهزت لها السلطة في أطباق من الورق المقوى ووجد رايان لنفسه شوكة فأخذها وراح يأكل. وبعد بركة شعرت بالجموع وبفراغ معدتها وشجعته راحة طعام رايان فتناولت السلطة بحثاً عن طعامها وأخذت تأكل منه.

ثم سألتها:

«هل تشعرين بتحسناً».

فخفق قلبها لهذا التغير السريع في مزاجه وهزت رأسها ثم سألته:

«هل فرغت من التسجيل».

«نعم قمت بواجبي ويمكنني أن أرتاح».

ثم رقد بجانبها، فتأثرت حواسها لثوبه، وتجاوب قلبها معه، فسأله الطويلتان اللويتان وعضلات ذراعيه وصدره العاري، كل هذه الأشياء ذكرتها بعناد القوى. وكان في إمكانه أن يجعلها تخضع له كلية، لكنها شكرت ربها لأنه تركها في الوقت المناسب لأنها كانت ضعيفة تجاهه ومسلوبة الإرادة.

وفجأة جلس والنقطة أخذ الأحجار وأخذ يتفحصه وسمعها تقول:

«هل هو ذو أهمية».

«ليست أهمية كبيرة».

ثم تناول حجراً آخر وقال:

«هذا من حجر الصوان. ويكثر في هذه المنطقة».

ثم قال لها:

«جعلت مني مدرّساً لهذه المادة وهو ما أفسدت ألا أفعله، فأنا لا أطبق النظريات».

بل أنفصل أن أطبق العمل على نظرياتي».

يبدو أن هناك معنى مستتراً وراء هذا القول. فإن حديث رايان يتطوّر دائماً

على معاني مستترة ولكنها كفت عن محاولة حلها. ثم قالت له:

«استمر من فضلك، فالجيولوجيا تبهمني دائماً من زاوية الهواية فقط».

«أعتقد أنني جعلتك تهتمين بأنواع الصخور أكثر من اهتمام أبي بطبوره».

احمر وجهها خجلاً فضحك لاجراجهما.

«والآن ماذا أقول لك؟ كانت هناك كمية من الصخور المكسورة قطعاً بقيت بعد

ذوبان ثلج العصر الجليدي، ومعظمها كانت صخوراً محمية ولكن بعض الصخور

جاءت من أواسط عاصمة النرويج واكتشفت على ساحل شرق انغليا.

وسوف أعبرك كتاباً في هذا الموضوع حتى يمكنك أن تعرف شيئاً عنها».

فقالت:

«على الأقل عندما ألنقط أحد الصخور لدراسته أكون متأكدة أنه لن يغير قبل

أن أتمكن من ذلك».

أطلق ضحكة عالية ثم وقف ومد إليها يده وقال:

«تعالني أخذك إلى الماضي السحيق».

ثم جذبها فقامت وأخذت تتكلم ملابسها فأخذ ذهنها في يده ونظر في ملامحها

وقال:

«هل جفت الدموع».

هزت رأسها بالاجتهاد. ثم قال:

«حسناً. سأخذك الآن إلى مكان يسمى غريز غريز».

وسارا في الطريق الذي يوصلهما إلى السيارة. وكان رايان ينحنى من وقت

إلى آخر لينقذ صخوراً من حجر الصوان. ولما وصلا إلى هناك بعد فترة قصيرة،

أخبرها رايان أن هذه الجهة مكونة من حجر الصوان. ومراً بأكواخ وكنائس بنيت

كلها من هذه الهجرة.

ثم تركا السيارة وسارا في طريق واضح المعالم وقال لها رايان إن رجال الحفريات اكتشفوا عام ١٨٧٠ أن الحفر الموجودة بكثرة في هذه المنطقة هي أفواه لمتاحم حجر الصوان الموجودة على عمق أربعين قدماً. وقد انهار سلق أحد هذه المتاحم فوجدوا المتاحم ما زالت هناك بعد أن تركها رجال المتاحم من آلاف السنين ويمكن استعمالها الآن.

ثم أمسك رايان يدها بشدة فنظرت ماريتا إليه وهي ترتجف واستطردت: «وجدت قرون الوعل الأحمر في كل المتاحم، وهذا يعني أن إنسان ما قبل التاريخ استعملها كمعاول لاستخراج حجر الصوان، وظل أحد المتاحم مفتوحاً للجمهور. فهل عندك الشجاعة لكي تنزلي فيه؟ إنني أرى أنه جدير بالزيارة». وكان الغطاء المستدير للمتاحم قد نزع، ونظر إلى داخله فوجدوا سلماً معدنياً يصل رأساً إلى أرض المتاحم فقال لها رايان: «سأنزل أولاً، ولكن يبدو عليك أنك محتاجة إلى تشجيع».

ونزل إلى المتاحم ماسكاً طرفي السلم. وأشار لماريتا بالنزول. وكان المتاحم مظلماً ولكنها تغلبت على مخاوفها واستدارت ونزلت، وأخذت ينظران إلى المتاحم الرابع.

وطوقت يدا رايان وسط ماريتا فارتكرت عليه. ولم تأبه لتأويله لهذه الخطوة التي اعتبرتها نوعاً من الخضوع الصامت.

وأمكنه بكل مهارة أن ينسج عندها حماسة كبيرة كحماسه، وأيقنت أنها لن تقيم، بعد ذلك، حواجز تفصلها عنه. فقد اكتشف المتاحم الذي يصل به إلى عواطفها فيمكنه أن يديره فتفتح له الأبواب ويكنه أن يفعل ما يشاء.

وسمعا أصوات أطفال تصل إليهما من فوق المتاحم، ووقع أقدامهم تنق السطح فابتعدا، ثم رأيا وجوه الأطفال تطل عليهما من قمة المتاحم فقال رايان: «لقد أغاروا علينا. ويحسن أن أتقدمك في الصعود قبل أن يأتوا فيفسدوا جنتنا». قبل انتهاء السلم رأت رايان ينتظرها فاتحاً ذراعيه لها، ولكن قدمها زلت فجاهدت حتى استعادت توازنها، وقبضت على جاني السلم ثانية، وشعرت بالألم

ينفض في ساقها. وأخيراً ساعدها رايان لتصل إليه. ثم جسا ليرى ساق ماريتا ويمسح الجرح بمنديله وهو يقول:

«للأسف، فالسيارة بعيدة».

«سوف يمكثني الذهاب إليها بسهولة. فليس الألم كبيراً».

ولكن بعد برهة، وبالرغم من التفاف ذراعه حول وسطها أخذت تعرج، وفجأة، وبدون أي كلمة، مال عليها وحملها بين ذراعيه إلى السيارة. ولما اقتربا من المنزل قال لها:

«سأسافر صباح الغد إلى لندن في رحلة سريعة، وعند رجوعي في المساء هل تتناولين العشاء معي؟ ما هو ردك يا حلوة؟»

كلمة التذليل جعلت قلبها يسرع. فهمست تقول:

«إذا أردت ذلك».

«نعم أريد ذلك. أريد عينين ومادتين تنظران إلى عيني في ضوء الشموع وحاجبين مقوسين يتحديانني وشفتين كاملتي التكوين يغرياني... هل يمكن هذا الشعور كي تعرفي كم أريدك؟»

ملأ وجهها الحجل للمعاني المختلفة وراء قوله... إن الحب لا يبدو جزءاً من حياة هذا الرجل فهو لا يحتاج إليه ويسخر منه، فمن الجنون أن تترك نفسها تقع في شركه. ولكنها وقعت بالفعل ولا يمكنها التراجع.

وعندما وصلا إلى المنزل حملها من السيارة. فقالت له:

«أنزلي يا رايان. لنلا برانا أحد. أنا قادرة على المشي فوالدك...»

ولكنه صمم على حملها وابتسم لها بحنان وقال لها وهو يقترب من الباب:

«هل هذا وعد منك؟ بأننا سوف نتناول العشاء معاً مساء الغد».

هزت رأسها موافقة ثم دخلا البهو فاستقبلها هارفورد غاضباً ولكنه لم يتكلم ثم رأى سائنها المجرعة تبارك عليه الاهتمام وقال:

«ماذا حدث يا رايان؟ وكيف تركتها تؤدي ساقها؟ طلبت منك بعض التسجيلات وليس أن تذهب إلى مكان خطراً انزلها لأرى بنفسي».

«أخذتها إلى غريجز غريفز. فهل تسني ذلك خطراً؟ لقد زلت قدمها عن السلم».

قالت ماريتا وهي تتعمل بين ذراعي رايان:

«إنه أمر بسيط يا هارفورد. سأغسل الجرح وأضمده».

«لا إني أصر على دعوة السيدة فيسك لتساعدك. خذها إلى الدور الأعلى يا

رايان إلا إذا فطنت أن أحلك بنفسك يا عزيزتي».

«تحملها أنت يا أبي».

وحرس رايان أن يجعل أباه يدرك تقدمه في السن والمخطوطة التي تنجم عن

حمله لماريتا والمشي بها. فما بالك بصعود السلم بها.

ووضع رايان ماريتا على السرير وخلع لها حذاءها. فلم تنهز بل

استعذبت لمسه لما ولم تحاول أن تداري شعورها.

ومال عليها ثم قال هامساً:

«إذا طليت منك أن تقسحي لي لأرقد بجانبك هل ترفضين كما رفضت من قبل

عندما رقدت في سريرى ودعوتك أن ترقدي بجانبى».

وسمعا صوت السيدة فيسك بالباب تقول:

«أنسة نيوبيل».

فاستقام رايان وهسى:

«سوف أعيد عليك هذا السؤال في وقت يسمح بذلك».

وغادر الغرفة.

كان الحديث أثناء العشاء ينصب على اشتراك الأب وابنه في المناقشة عن

تسجيل غناء الطيور وكانت معرفة رايان عن حياة الطيور توازي معرفة

والده بها. ولما فرغ العشاء تركها رايان بعد أن ابتسم لماريتا وودت

ابتناسمه بدون تحفظ.

ثم أخذت تسأل هارفورد عن يومه في الجامعة، فرد يقول:

«لم نحرز نجاحاً كبيراً. فالمناقشات كانت عن المال. وعن القدر القليل الذي

نحضرنا له بدلاً من المبلغ الكافي الذي طلبناه».

ثم كف عن الكلام في هذا الموضوع ونظر إلى وجهها بحنان وقال:

«إني سعيد لأنك مرتدية ثوباً أصفر كالشمس وهو يناسبك دائماً».

ودعشت لذلك. فهذه هي المرة الأولى التي ترتدي فيه ثوباً أصفر ولم يرها أبداً

مرتدية ذلك اللون.

ثم قال لها:

«تعالى معي إلى الحديقة يا ماريتا للتنزه».

ثم أمسك بيدها وسارا فوق العشب الأخضر الذي كساه الندى ورأيا

البيستاني ما زال يعمل بإخلاص.

وفي حديقة الورود العيقة برائحة الزهور والمشرقة بألوانها طلب هارفورد

يد ماريتا قائلاً:

«يشرفني أن تكوني زوجة لي يا عزيزتي. هل تتزوجينني حتى تكوني بجانبى

دائماً عندما أحتاج لك؟ سأعطيك كل شيء... منزلاً جميلاً وأشياء قيمة وفوق

ذلك... حبي».

استعادت هذه اللحظات وهي في غرفتها تنظر إلى السماء التي زينتها النجوم.

فشعرت بألم غريب. وكانت قد أرجأت الرد قائلة له:

«أعطني وقتاً. فنحن لا نعرف عن بعضنا البعض إلا القليل».

وقمت أن يكون الابن هو الذي يعلن عن حبه لها. ويطلب منها أن تكون

بجانبه طول حياته.

وكان هارفورد قد رة عليها يقول:

«أنا أعرف عنك أكثر مما تظنين. الطريقة التي تبسمين بها وتعبين بها. وإذا

أغضبك شيء أو الطريقة التي تشارك بها في كل شيء. وتضحك لذلك. والطريقة

التي سوف تقفين بها بجانبى لتكوني عروسة لي. إني أراك في أحلامي. وأعيش

معك خلالها... وراء الأحلام... تكمن الحقيقة... رت هذه الكلمات في ذهنها

ولكن لم يكتفها تفسير معناها.

وقبل هارفورد أن يعطيها وقتاً تفكر فيه. وكان متأكداً أنه سوف يجعلها

تشعر بحنانه... لا يهم فارق السن بينها ما زال قوياً. وسوف يعيشان سنين

طويلة ويتجيان أطفالاً.

شعرت بالشفقة نحوه. فهو رجل طيب وقتت لو لم يكن له ابن أحبه بقوة...

ولم تكن تعرف أن في مقدورها أن تحب بهذه القوة.

ثم أخذت تفكر في كل ما قاله رايان حول عدم الاكتراث للحب فقد أقسم أن هذا هو دستور حياته. وأنه لا يحسن معاملة النساء. وحاولت أن تكرهه بدون فائدة... لم تنكر الحب الذي تشعر به نحوه. فهو موجود وسوف يستمر ولن يخيب أبداً.

استيقظت ماريتا في اليوم التالي لتراء جالساً بجوارها، فظنت أنها تحلم ولكنه ابتسم لها، وأرادت أن تخبره عن طلب والده يدها. لكنها فكرت... إن هذه الدقائق الغالية لا يجب إفسادها فهي لن تزوج الأب بيتاً تحب الابن. وسعته يقول:

«إننا على موعد هذه الليلة. كوني جاهزة عند رجوعي وسأعمل على وصولي مسرعاً.»
«خذ حذرَكَ.»

وبدا اليوم طويلاً. ففي الصباح اعتذر هارفورد لتركها بمفردها وراح يعمل فتسللت ماريتا إلى غرفة رايان لأنها تأكدت أنه لن يرجع فجأة. وأخذت تفحص المذكرات لمراثا مكتوبة بعناية بالغة، وأسلوبها سلس، وقارنتها بأوراق والده التي كانت تجدّها في العمل. فوجدت أن تسلس أفكارها واحد. فأسفت لذلك الخلاف الذي كان يفصلهما.

وبعد الظهر عند وجودها مع هارفورد في المخبأ جنباً إلى جنب كان عطوفاً متفاهماً... وكانت مشكلة التصوير، كما قال لها، هي أن تكون قريبة من الطيور ولكن ليس بالقرب الذي يجعلها تلزع. وتوجد طريقة أخرى هي استعمال عدسة مقربة. وهي غالية الثمن ولكن عندما تصيح ماريتا أكثر تدریباً، سوف يشتري لها واحدة مثل عدسته.

واختارت لحظة لتخبره فيها عندما صوّر طيراً. وكان سعيداً لأنه صوّره وهو في وضع فريد أثناء طيرانه.

كان مشغولاً بإعداد الكاميرا للصورة التالية عندما قالت له: «أرجو ألا تستاء يا هارفورد لأنني سوف أتناول العشاء. هذه الليلة في الخارج، فقد دعاني رايان للعشاء.»

ثم التفتت إليه ورأت تعبيرات وجهه الجامدة: «وهل تظنين أنه من العقل أن تقبلي هذه الدعوة؟»
«من العقل؟»

«لقد حذرتك من ابني يا ماريتا لاستهتاره في معاملة النساء.»
«ولكنه دعاني لتناول العشاء فقط، وأتقن ألا تستاء لذلك.»
«انه ولدي وإني أثق فيه... في بعض الأشياء فقط.»
«أنا أسفة.»

ولكنه لم يرد، فعرفت ماريتا أنه لم يتقبل الاعتذار. كانت ماريتا جاهزة عند رجوع رايان وعرفت أنه يرجع مسرعاً ليحافظ على مواعده معها. فهل تستمد الأمل من هذه الشواهد؟ ولكن أي أمل؟ هل هو الأمل في أنه سوف يبادلها عواطفها؟ وهل هي غريبة إلى هذا الحد؟ كفأها كل هذه التحذيرات من والده... بل ومن رايان نفسه... فلا قيمة للزواج أو الأطفال في مستقبله لا روابط من الأطفال والبيت. ولا عوائق أمام حريته. ارتدت ثوباً أحمر نارياً يكشف عنها الأبيض ويحدد خصرها التحيل ولا يخفي ردفيها الممثلين ودفرت كتفها بالشال الذي أهدها لها رايان...
ظهر الإعجاب في عيني رايان وقال لها:

«تبدلين جذابة وواقية. وهما صفتان بالغتا الخطورة إذا اجتمعتا معاً فأنا لا أفهم الأولى أما الثانية فأعجبها منذ صباي تحديداً يجعلني أود البطش بها. فحذار يا ماريتا.»

تناولا العشاء في مطعم محلي، رأت على جدرانه صوراً قديمة... وكان عبق الماضي يمتزج مع الحاضر. وكان رايان يرتدي سترة بيضاء وقميصاً فاتحاً ويلمع شعره في الضوء الخافت. فظهر كأنه لورد هذا القصر وماريتا سيدته. ثم رجعت إلى الواقع ورايان يسألها:

«هل تحلمين بالمستقبل؟»
المستقبل؟ إنها بالرغم من أن هارفورد طلب الزواج منها لمجهل مصيرها. فردت تقول:

«لا. إنني أفكر في الماضي وأقص على نفسي قصة من مائتي سنة مضت».

«لا يمكن أن أجاريك في الماضي. لأنني رجل عصري. فأنا صورة مصغرة لآسان هذا العصر، في تصرفاته».

«وأخلاقياته»

«وأخلاقياته...»

ماتت الابتسامة على شفيتها واستطردت تقول:

«إنك جيولوجي، ومع ذلك تسامر هذا العصر. وهذا تعارض لا يمكن الجمع بينها».

«أنا أرجع إلى الوراثة، في عملي، مئات بل آلاف الملايين من السنين وفي راحتي أبقي في الحاضر وأتقنع بكل دقيقة منه».

ونظر إليها ثم عاد فقال:

«بل كل ثانية منه».

وتكلمها بهدوء، وكان لطف رايان قد أحاله إلى إنسان لم تعرفه من قبل فأين ذهب بروده وأين اختفت قسوته؟ ثم قال:

«لا بد أن أريك هذه المنطقة. هل شاهدت نورفولك؟ نحن نمتلك زورقاً هناك

وبه محرك وغرفتان، وإمكانات لطهو الطعام وحمام صغير وكل ما يحتاج إليه المرء».

«وهل تقضي إجازتك هناك؟»

«أحياناً أمضي هناك بضعة أيام. ولا أذهب مع والدي أبداً. إن أبي يستخذه في

شأنه لمراقبة الطيور والمنطقة تسعده بذلك. أما أنا فأقصد المكان لأبعد عن كل شيء. وسوف أصبحك مرة تربية».

وسألت نفسها متى؟ لا أمل لها في شيء فأياهما في مبنى الأفق معدودة.

قريباً سوف يطلب منها هارفورد رداً على طلبه الزواج منها وسوف ترد بالرفض ولذلك يجب أن تغادر البيت. وهذا معناه ألا ترى رايان ثانية.

وحاولت أن تجد الشجاعة لتخبره بطلب هارفورد أن تكون زوجة له. ولكن

الكلمات كانت تتحرج في حلقها.

وبعد تناول القهوة قال لها رايان:

«الطعم له حديقة خلقية مليئة بالورود والأشجار. تعالي معي لنراها في ضوء القمر».

وجدتا في الحديقة نافورة فسارا حولها وأحكمت مارييتا الشال حول صدرها

لتتفادى رذاذ النافورة على جلدها.

وجدت في الحديقة مقعداً خشبياً وكانه صنع للمحبين فقلدها رايان إليه ولما

نظرت صوبه وجدت ضوء القمر قد أحاله إلى هيئة الأشباح، وكأنه أصبح جزءاً

من الماضي لا يمكن بلوغه... لقد أصبح شغافاً... نظر إلى وجهها وابتسم فردت

ابتسامته... إن الشبح لا يدق قلبها بهذا اللد. فالرجل له جسم قوي وعسلاته

حديدية تشعر بها تحت ستروته.

ثم التفت إليها وجذبها ففردت بجانبيه وفرد لها ذراعه لتسند رأسها عليه. وأخذ

يتحسسها بيده الأخرى. وعندما مانتعت مارييتا عائلتها حتى لا يسمع

احتجاجها... لا فائدة من مقاومته ولا قوة لها على ذلك!

ثم جذب حرقى الشال عن عنقها وأخذ يمسح:

«قولي إنك تحبيني. اعترفي بأنك وقعت في حبي وإلا...»

وأخذ يجذب الشال حتى إنها شعرت بالخوف، ولكنه خوف استعشبهته وكانت

تحت رحمة ومع ذلك تجاوبت مع الشوشة التي أثارها فيها.

«إنني أحبك يا رايان أحبك».

ورأت في عينيه بريق الانتصار. فقد فاز ولكن ما هو هذا الانتصار؟

ولما عادا كان هارفورد في البهو وكانت أيديهما متشابكة عندما وقفا أمامه

وقكرت مارييتا. لو رجع التاريخ قرنين إلى الوراء فحتماً كان أحدهما سيلقي

بقفازة لعدياً للسيارة، ولكن الرجلين كانا أباً وابنة فشعرت بالخوف لهذا الحاضر

التي يقودهما إلى المباراة حتى الموت...

ثم عادت إلى الحاضر وعرفت أن هذه المواجهة جعلت الجو يتكهرّب بينها فلا

بد أن تهرب.

التفتت إلى رايان وقالت:

«شكراً يا رايان لهذا العشاء الرائع ولكل شيء... ذهبنا إلى مكان رائع يا

ابتسم لها. فتساءلت عما رآه في خديها الملتئمين. ثم قالت لرايان الذي كان ما زال محسكاً بيدها:

«لا بد أن أصعد إلى غرفتي يا رايان».

ثم وجدتته يأخذ بيدها ويطيح قبلة على معصمها. ولكنها لاحظت أنه يمثل هذا الفصل ولكن عندما نظر إليها رأت الدفء في عينيه.

ولما وصلت إلى غرفتها نظرت من النافذة وتساءلت ماذا يحدث في غرفة الاستقبال؟ ولماذا لم تجد الشجاعة لتخبر رايان بطلب والده لها؟ هل يخبره والده الآن؟ وبعد مطارحتها الحب في حديقة المطعم ماذا يظن رايان بها بعد أن يعرف أن والده يريد الزواج منها؟

وأخذت تتجول في غرفتها بقلق. ثم مشطت شعرها وجددت زينتها وعقدت الشال على كتفيها وكأنها شيء. أرادت أن يحجبها، ثم نزلت إليها. وقبل أن تصل إلى نهاية السلم سمعت العراك اللوي. فشحب وجهها وضعت ساقها فأمسكت بسياج السلم لتتمكن من النزول.

كان صوتها عالياً يمكنها من سماع كل كلمة منه:

«طلبت الزواج منها فطلبت مهلة تفكر فيها لكنها لم ترفض».

ثم انخفض صوت هارفورد إلى المنخفض ثم ارتفع ثانية.

«فعلت ذلك متعمداً فجعلتها تقع في حيك لتتحدثني وتتفرق علي... استخدمت لطفك وكل سلاح لديك. ولك أسلحة كثيرة كثيرة جداً لتتزعجها مني وتركتني أعزل... هذه خسة ونذالة».

فرد الابن بصوت قاس:

«إنك على حق. ولن أنكر شيئاً وأعترف أنني فعلت ذلك عن عمد، فقد عملت كل ما في وسعي لأجعلها تحبني. فكنت أرى ما يعتربك من مشاعر ولاحظت ذلك من أول الأمر، وكان علي أن أتلقى الكارثة التي سوف تقع حتى إذا تزوجتها، فأنت في دنيا الأحلام... دنياك وحده... وكان علي أن أجعلك ترجع إلى غفلك وترهاها كما هي لا كما تريد أن تراها. وأجعلك ترى غرابية تفكيرك وتغطفن إلى

المصيبة التي سوف تواجهها إذا استمر طيشك. وقد نجحت في مساعي. فالليلة باحت لي بحبها وذلك بالقول والفعل. وقد انتصرت بيننا ذقت الهزيمة يا أبي. ولا شيء يمكنه تغيير الموقف فامتثل للحقيقة وعش في وحدتك بسلام وتغفل».

«لا».

ثم التفتا إلى الباب وكأن شيئاً قد دخل عليها... فوجه ماريانا كان شاحباً. وشعرت بأنها ماتت ثم بعثت كي تتعذب. ولو أن العذاب كان قدرها وكانت كلمات رايان تطوف برأسها وترن فيه كأنها في كهف... «لقد فعلت كل ما في وسعي لأجعلها تحبني وإني أعترف أنني فعلت ذلك عن عمد... الليلة بالقول والفعل واعترفت أنها قد أحببتني...»

قال لها هارفورد وهو يقترب منها:

«ماريانا».

فردت هامة مثل النسيم:

«هارفورده. هل ما زلت تريد الزواج بي؟»

فشحب وجهه وبدأ عليه الفرح وقال:

«نعم يا عزيزتي».

ولكن رايان قال:

«قلت إنك تحببتي لقد اعترفت لي بذلك عندما تحدثت».

«نعم إنني أعترف بذلك. ولكن كان هذا تحت التهديد والاكراه».

لا أحد يدري كم تكبدت من ألم وهي ترد عليه، ثم جمعت طربي الشال حول عنقها كما فعل في الحديقة وقالت له:

«هل تذكر هذا الشال؟»

وأدارت وجهها، فقد وجدت في وجهه الازدراء والكراهة وقالت لتسها بيأس:

نعم، الكراهة.

ثم أضافت:

«هارفورده. هل ما زلت تريدني زوجة لك؟»

«يا فتاتي الحلو. هل تذكرين ما تقولين؟ إنك شاحبة...»

«سوف أتزوجك يا هارفورد».

وكان صوتها عديم النبرات وعينها مفتوحتين وكأنها تنفي وهي نائمة.
أخذها بين ذراعيه في حنان وتقدير وكأنها شيء ثمين قابل للكسر. ماذا
قال رايان عن ذلك منذ ساعات... بل منذ سنين مضت! فهي تنبره وتجعله
يشم كل شيء براء رقيقاً قابلاً للكسر وقد حطمتها ورفس الحطام بقدمه.
وبيتاً كان هارفورد يعانفها انحر التال عن كتفها وسقط
اجتاز رايان الغرفة والنقطة ووضعه في جيبه ورأت ماريتا ما فعل
بشالها وهو الهدية الوحيدة التي تلقتها منه! لن يكون لها بعد ذلك شيء تذكره؟
وكانت النظرة التي ألغها عليها قد جعلتها تجفل وتغمض عينيها ثم قابلت
ولكن يدا هارفورد أمسكتا بها. وسمعت قدمي رايان تنجها نحو الباب
الذي أوصده بشدة وراءه.

٨ - قلب من حجر

في اليوم التالي اشترى هارفورد لماريتا خاتم الزواج المصنوع من الماس
والزمررد. وأمضيا فترة بعد الظهر في المخيا، أما المساء فقد قضياه في سماع
الموسيقى. وقالت لنفسها: هكذا سيكون أسلوب حياتها من الآن ويجب أن تتعود
على ذلك. ولكنه سيكون صعباً عليها... فهي فتاة هادئة الطبع.
وأصر هارفورد أن تكتب إلى المسؤولين في التعليم وتبلغهم باستغلالتها. ولم
يريا رايان طوال اليوم، لكن ماريتا عرفت أنه لم يغادر المنزل إذ سمعته
يحادث المشرقة على المطبخ. وقال لها هارفورد إنه دعى لائلاء محاضرة في مؤثر
لمراقبة الطيور في أواخر الأسبوع... وأضاف وهو يقبل خدها:
«هذا معناه أنني سأغيب لمدة يومين».
ولكن المشكلة حلت بسهولة، فقد تلقت مكالمة هاتفية من والدتها تقول إنها
سوف تحضر. ووجدت ماريتا هذه الفرصة لتخير والدتها بخطبتها لهارفورد،
فقالت لها:

«إن لدي أخباراً، لقد خطبت، وسوف أتزوج يا والدتي»
«ومن هو ذلك الرجل السعيد يا حبيبتي! هل هو ابن البروفيسور ثيودور»
حيث ماريتا أنفاسها حتى تتمكن من الكلام:
«لا، لا... طبعاً لا... فهو ذلك الصنف الذي لا يتزوج أبداً. إنه هارفورد نفسه».
وهنا سمعت صوتاً من الناحية الأخرى من الخط ثم أصافت:
«طلب الزواج مني ووافقت. هل أنت مسرورة لذلك؟»

ذلك أحياناً وهي طفلة. فين فراغي والدتها لجد السلوى وحل المشاكل. فلم لا
تفعل هذا الآن. وتأكدت أخيراً أن الحقيقة تكمن وراء الأحلام. وكان حلمها هو
حبها رايان واعتزلها له بذلك الحب.

كررت جوزفين سؤالها:

«كيف تشعرين يا حبيبتي؟»

وقعت مارييتا وجهها ورأتها والدتها وهي تحز على شفتيها ولمست الحبرة في
عينها الرماديتين فجلست بجانبها وأخذت يديها بين كفيها وقالت:

«أريد سعادتك فقط ويجب أن تتأكدتي أن ما تفعلينه هو الصواب. من العار أن
تخذلي رجلاً فاضلاً كالبروفيسور. يبدو أنه يحبك ومستعد أن يعمل ما يرضيك
ويسعدك. إذا لم تنزوجه وبعدت عنه سوف يتألم وتتحطم حياته. فهو ليس شاباً
يتحمل مثل هذه الصدمات.»

«أعرف ذلك يا أمي. وسأكون له زوجة صالحة. وأعرف أنه يكبرني بسنوات
عديدة لكن عندما تحب الفتاة شخصاً لا يهم السن.»

«وهل تحبين أستاذك يا مارييتا؟»

وبعد فترة طويلة ردت مارييتا تقول:

«إنني أعجب به.»

تأملت جوزفين ابتها طويلاً ثم قامت لتستكمل عملها.

ونزل رايان إلى العشاء وتحدث مع والده ومع جوزفين. ولكنه تجاهل
مارييتا فجلست صامتة بالرغم من أن هارفورد عمل ما في وسعه ليشركها
في الحديث. وكانت جوزفين تضحك معه أما مارييتا فابتسمت ولكن
رايان تظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. ولم يبق معهم بعد احتساء القهوة معتزلاً
بأنه مشغول.

وبعد ذلك. عندما كانا يفردها في غرفة مارييتا. قالت لها والدتها:
«أفئتي أن تكوني سعيدة يا عزيزتي. فأنا أشعر بأن هناك شيئاً يزعجك أنا متأكدة
من ذلك. فقلنا صارحتني به؟»

صمتت مارييتا لأنها لم تقو أن تكذب على والدتها التي قالت لها:

«ولكن يا مارييتا إنه يكبرك بسنوات كثيرة. هل تتصرفين بحكمة؟»

وقد ألتفت مارييتا هذا الترحيب الغائر لذلك التبا. فقالت:

«من غير شك أنصرف بحكمة. أنا راشدة وأعرف ما أريد. أليس كذلك؟»

«لا تغضبي يا عزيزتي مارييتا. إذا كان في ذلك سعادتك. فأنا سعيدة به. والآن
يجب أن ألبى دعوة البروفيسور. فإذا كان سيصبح زوجاً لابنتي...»

وسكنت لأن هذه الكلمات جعلتها تندش وهي تنفقه بها ثم جاء هارفورد

والتفت الساعة من مارييتا وقال:

«سيدة نيويل. هل سمعت الخبر من ابتنتك؟ جعلتني رجلاً سعيداً جداً وسوف
تسعد بحضورك هنا.»

ورتبوا أن تصل جوزفين في اليوم التالي للفشاء إجازتها في مبنى الأفق.

ولدهشة مارييتا ذهب رايان إلى المحطة لاستقبالها وسعته يتكلم مع والده

ولكنها لم تعرف التفاصيل. وعندما نزلت لاستقبال والدتها أصبحت وجهاً لوجه

مع رايان. فرأت في عينيه يروءاً. ولما شكرته جوزفين لاستقباله ابتسم لها. ثم

لما استدار وواجه مارييتا تحت الابتسامة عن وجهه.

قالت جوزفين هارفورد:

«أمكن رايان التعرف على بسهولة وقال لي إنني أشبه ابنتي حتى يظن أننا

أختان. وهذا تكريم لامرأة في سننا»

ضحك هارفورد وقال وهو يتأملها:

«نعم... إنك مثل مارييتا. ولكنك أكثر منها جلالاً وصفاء.»

ثم استأذن رايان بأدب وذهب.

وأخذت مارييتا والدتها إلى غرفة منامة الضيوف. وجلست معها على

السرير وبينما كانت جوزفين ترتب حاجياتها أخذت مارييتا تقلب الحاتم في

أصبعها وهي لا تدري ماذا تقول.

وبعد فترة صمت حرجة قالت جوزفين:

«حسنًا يا حبيبتي. سوف تصبحين قريباً امرأة متزوجة. فما هو شعورك؟»

وددت مارييتا أن تطلق والدتها بلراعيها وتبكي من قلبها. كانت تفعل

«راقبتك أثناء العشاء وراقبت البروفيسور أيضاً».

«ما هو انطباعك؟»

«لا تكوني متهمكة، يا حبيبتي، فإني أريد الوصول إلى الحقيقة... هارفورد لطيف وطيب ورائع، وهو يمتلك الحيوية لاشك في ذلك. ولا يعاني من أمراض الكهولة التي يعاني منها غيره من الرجال. ولكنه ليس شاباً في تصرفاته يا مارينا. ومن الصعب عليه أن يتجاوب مع فتاة سنها أقل من سنه بشائية وعشرين عاماً، فلا بد أن تتأقلم على طرق معيشته لأنني سرت في الطريق نفسها ولكن رحلتي كانت مع رجل يقارب سني».

انجهت مارينا إلى النافذة ثم قالت:

«لن أغير رأيي يا أماء... فأنت تتوهمين ضعافاً لا وجود لها. إنني أقدر اهتمامك بي ولكن لا فائدة من ذلك فسنأزوج هارفورد».

وبعد يومين ذهب هارفورد إلى مانشستر حيث يعقد مؤتمر عالمي لجمعية مراقبة الطيور، وكان مدعواً لمركز هام في المؤتمر، وقبل سفره عاتق مارينا وقال لها:

«لو كنت بفردك لأصطحبك معي ولكني لن أغيب طويلاً».

ثم تغير الجو واكثفرت السماء، وكانت الأمطار تسقط من وقت إلى آخر وتكنت جوزفين من رؤية الهديفة كلها سمح الجو بذلك وفي يوم اصطحبها رايان إلى نورويتش ثم تركها في السوق وقال إن لديه بعض الأعمال. وتساءلت مارينا: إذا كان يدعي هذا العذر كي يتجنبها. ولما رأت المظلات الخشبية التي تغطي أقسام السوق وتحوّلت بينها وشاهدت البضائع المعروضة، تذكرت حين كانت في السوق ومزّت على القسم الذي رأت فيه الشال الأبيض الذي اشتراه لها رايان والذي استعاده ثانية. وربما أعطاه الآن لصديقه...

وقامت عاصفة بعد ليلة على غياب هارفورد، وكان الهواء يعصف مثل هواء الشتاء.

واستيقظت مارينا بسبب الضجة التي سببتها العاصفة، ووجدت أن مقاعد الهديفة تهشم. وأمكنها رؤية الأشجار في الغابة إلى جانب الغدير.

وهبت ريح قوية أتية من بحر الشمال، لم تمنعها التلال التي صادفتها والتي كانت كحاجز للرياح، وسمعت أصواتاً أتية من الغابة. وتذكرت مارينا محباً هارفورد هناك وتذكرت أن العاصفة لا بد أن تهشمه، وهو قرة عين هارفورد وجزء من حياته. ليست بنظولاً من الجبّز فوق قميص نومها وسترة سمكية وارتدت صندلاً ونزلت إلى البهو ودلفت منه إلى الخارج. كان الهواء شديداً فتناثر شعرها على وجهها، وكان العشب مبللاً بماء المطر فابتلت أصابعها العارية... ودخلت الغابة. واجتازت نيات العليق الذي مزق بنظولتها، وترك أثراً على جلدها... نعم لقد وجدت المخبأ متهازاً تحت الأشجار وسقته مهشماً وقد انقلبت المقاعد وابتل الدفتر حيث يدون هارفورد مذكراته، فلما وضعت في جيبيها سمعت وقع أقدام تعبر العشب وتقترب منها، فتسمرت بخوف يملق خوفها من العاصفة. ونظرت خلفها فرأت رايان ينظر إليها بغضب جعلها تشعر بحاجتها إلى حماية نفسها منه. فأخذت تركض لكن الهواء أطار شعرها فحجب عينيها ومنعها من الرؤية. فاستطاعت قدمها بجزء بارز من جذور إحدى الأشجار وارتقت على وجهها وهي تتن.

ثم شعرت بيدي رايان تحاولان إيقاظها. وتكن من الإمساك بها من كاحليها ورسغيها، وبقي وجهها إلى أسفل. وكان يحسها وأحياناً يجبرها فجرح الشوك وجهها ورقبتها. فأخذت تصرخ وتحاول أن تجعله يتركها. ثم شعرت بجسم الرجل يغطيها ليحميها من... ماذا! وسمعت صوت شجرة ضخمة تسقط قريباً منها حتى أن بعض الأغصان احتكت بها في رلدتها. وبيتا بدأ الهواء الذي كان قد بلغ ذروته يبدأ هطل المطر غزيراً، ثم قام الرجل الذي ارتقى فوقها وبقيت مارينا راقدة لأنها فقدت القدرة على الحركة.

جلس رايان وقال:

«يا إلهي! كادت تكون نهاية زوجة أبي المستقبل، ماذا أتى بك في هذا الجو العاصف؟»

فردت تقول:

«إنه المخبأ الذي يعتز به هارفورد ولذلك...»

فقاطعها رايان متعكياً:

«ولذلك كخطيبة مخلصه حاولت إنقاذ مضحية بحياتك».

«لم أكن أعرف أن الشجرة ستسقط».

«أي شيء مثل ذلك الوقوع وبما في ذلك سقوط الأشجار. إنك مجنونة يا فتاتي».

«مجنونة... هل تسمعين؟»

وأعانتها على الوقوف ثم أخذ كليهما بين يديه وراح يهرها حتى تحببت أستانها.

وكانت حركاته قاسية بعد التي قاسته من العاصفة حتى أنها أخذت تصيح

وتعلن أنها تكرهه. ولا تود أن تكون فرداً من عائلته...

ولكن كلماتها انتهت بعناق بينهما اخترق ثل الحواجز التي كانت تلق حتى

الآن بين علاقتهما. حتى أنها شعرت بعد ذلك أن حياتها انسحبت وانتهت...

وبالتدريج أخذت طبيعة هذا العناق يعثرها التغيير. فبينما بدأت العاصفة

تهب من حولها. كانت العاصفة التي في داخلها تقوى. وللأسرة الثانية راح

رايان يفترق الحواجز. وكانت عواطفه هذه المرة غالبة من الغضب بل تلتهب

بالأثارة والرغبة. ولم تقل له «لا تلمسني فقد أصبحت ملك هارفورد الآن

ولست ملكك». فهي ما زالت تحبه بل زاد حبها له الآن... حتى إذا كان سيجعلها

تحبه قلط ثانية. كي يجابه حقيقة علاقتها بهارفورد. وينكشف لها مبلغ غباها.

أبعدها عنه ولكنه أبقاها معه فلم يفرغ بعد من مضايقتها. فهست تقول:

«رايان».

وكانت متفعله ترة أن ترد له دفء شعوره. ولكنه أبعدها بخسونة وكانت يدها

تحت إعطها لمساعدتها في المشي. وحاولت أن ترى أي أثر ناعم في تقاطيعه أو أية

إشارة بأنه يحتاج إليها كما تحتاج هي إليه. ولكن كأنها تبحث عن مسار أخذ

الطيور المضللة. فلم يبدأ أية ذرة من التسلقة أو الخنجان وأخذ يضغط على ذراعها

ويقول:

«والآن يجب أن تترك هذا المنزل وتتركي والدي. انزعبي واخرجي من حياة أبي

وتركبه لأحلامه».

ولكنها لم تسمعه. فقد وضعت رأسها على كتفه تدريجياً وقالت وكأنها تهذي

من الحمى:

«إنك ساذج وجبار. وقبح. ونظن أنك لتقتني درماً... درماً آخر قلت إنك

ستقتني الدرس تلو الدرس حتى أترك والدك وشأنه».

وسكت المطر ولكن دموعها ما زالت تنهمر على خديها. وراحت تهكي وهي

مرقبة على صدره وشعرت بصدره صلياً كالجليل. ثم هست تقول:

«رايان... رايان».

ولكن قبضته لم تلت. وبقيت ذراعاه كالجليل الرقيق حول ظهرها.

ورأيا البرق ينير السماء ولكن العاصفة هذأت عند الفجر فابتعدت ماريتا

عنه وقالت:

«إن وظيفتك تناسيك. فقلبك من حجر. ولا بد أن يستخرج قلبك من جسمك

ويخلص ليعثر فيه المرء على بقايا النباتات والحيوانات أو شواهد أخرى من

الماضي».

قبض على ذننها وأدار وجهها إليه فرأى على شوه الفجر الخائل المبروح

والحدوش التي سبها لها نيات العليق عندما جرها ليتفانى سقوط الشجرة عليها.

وراحت ترهف ولكنها لم تدر لتخبطها. سباً لذلك. هل لا يتلاى ملاسها. أو

للنظرة الباردة التي كانت في عيني رايان؟ وكان شعره مبتلاً. كشعرها من المطر

ووجهه يعلوه الغبار من رقدتها.

لقد أخذ حياتها ولكنها لم تشكره. وقجأة حملها بين ذراعيه وغادراً الغابة

والشجرة التي سقطت والمخاض المنهار

قالت وهي تحتج بهضعف:

«لا داعي لأن تحملي. فليكني المشي».

ولكنه ظل يحملها عبر العشب متجهاً إلى البيت. ثم قالت:

«رايان».

ولكنه نظاهر بعدم سماعها وبالرغم من ذلك استمرت تقول:

«أعتقد حياتي. فشكراً لك».

ولكنه لم يأبه لشكرها، واستمر في المشي يحملها كأنها عبء، يود أن يتخلص منه...

شكرته لماذا يطلب بعد ذلك؟ وأنزله في المطبخ وقال لها في حزم أن تبقى في مكانها، ثم أخرج من خزانة الأسعافات الأولية قطناً وساتلاً ملطفاً وأخذ ينظف الخدوش التي كانت في جبهتها وأنفها وتسير بطول خديها، وأخذت تقول بدون فائدة:

«لا داعي لذلك».

ولكنه استمر في تنظيف وجهها حتى نظفه كما يريد وقال:

«هل تحتاجين إلى مشروب ساخن أم بارد؟»

وكانت تود أن تشرب مشروباً ساخناً ولكنها ردت تقول:

«لا، شكرًا. لا داعي أن تغالي في طبيبتك فعندما يرجع هارفورد سوف أخبره عن اهتمامك بي، وأنت كنت مستعداً أن تخاطر بحياتك كي تنقذ عروسة المستقبل من الكارثة التي سببها غبارها».

ورأت غضبه الجامح في عينيه، فرفعت ذراعيها كي تحمي رأسها منه وابتعدت عنه، ثم رأتها يقترب منها على مهل ويقول:

«أنا ساندني وجدار هذه هي كليتيك هل تذكرينها؟ لم أنسها ولن أنساها أبداً. وربما كنت على حق، ولذا فأسرعي بالخروج من هنا، بعيداً عن نظري وأفهمي إلى غرفتك وأوصدي الباب وراءك، وإلا فلأني لست مسؤولاً عما يحدث لك».

ولم تشعر مارييتا بالرجفة إلا بعد أن دخلت غرفتها إذ أخذ قلبها يدق وأنفاسها تتلاحق، ولكنها لم تجد الذراعين اللتين تعطيناهما حتى السدف والصلوى ولو كانتا حديديتين!

ولما أتى الصباح وجدت مارييتا نفسها مضطرة أن تقص ما حدث فحسب وجه جوزفين لما رأت وجه مارييتا الجريح، ماذا حدث؟ وأصررت أن تعرف فأخبرتها ابتها بما حدث.

ولما نزل رايان للالافطار شكرته جوزفين فابتسم لها بحرارة وشعرت مارييتا بالبرودة تسري في قلبها، وقال لها إنه من المحسرة ألا ترث ابتها منها

رجاحة العقل.

ولما رجع هارفورد طلب المزيد من التفسيرات، فشكرها بإخلاص عميق لنهايتها كي تنقذ بحباً المفضل.

وكان رايان موجوداً للترحيب بأبيه فقال له:

«يجب أن تكون صادقاً معها يا والدي، قل لها إن ضياع المخيا لا بعد كارثة، فمن السهل عمل مخيا آخر باستعمال بقايا المخيا القديم، وقد عاينته فوجدت أنه من السهل إعادة بنائه».

فالتفت مارييتا إليه وقالت:

«هل تحاول أن تقول إن مجهودي في إنقاذ المخيا كان هباءً ضائعاً وأنتي كنت سقيية كما تحاول أن تجعلني أبوء داتماً؟»

وأغضب رايان والده كذلك، فقال له بغضب:

«إن الجانب المادي لا يهم، ولكنني متأثر لأنها فكرت في وفي الأشياء التي تهمني، وهرعت أثناء العاصفة لانتقاها بينما أنت، بعدم اهتمامك بالغير، لا تعرف عن ذلك شيئاً».

فرد بسخرية:

«شكراً لعرفانك بالجميل، أنا لم أنقذ حياة زوجتك المستقبلية من الموت المحتوم فقط بل كدت أفقد حياتي أيضاً».

وخرج رايان، وهرعت مارييتا إليه وهو يصعد السلم فالتفت إليها... كيف نهون عليه، وكيف تأسو الجرح الذي سببه له والده؟ وهمست تقول:

«رايان! أنا أسفة».

وبقي وجهه جامداً وضائق عيناه وأخذتا تطوفان برجعهما، ثم قال:

«هل أنت أسفة؟ ولماذا؟ هل أسفك على أم على أبي أم عليك؟»

ثم استدار وصعد بقية الدرج.

قضت مارييتا الصباح مع هارفورد في المخيا الذي أعاد بناءه ولدهشة مارييتا، جاءت والدتها تشاركها القهوة، وكانت هي التي حملتها، إليها بدلاً من السيدة غيسك وقد تأبطت أحد المقاعد المصنوعة من القماش ثم وعدت

هارفورده أن تبلى صامته بينما يراقب طيورده ويتعرف على ألوانها ولغاتها.
وسر هارفورده لاعتقاد التتبعين من أذكي النساء عليه ولما رأى أن اهتمام
جوزفين صادق وعد أن يعبرها كتباً في هذا الفرع. ودهشت ماريثا لتصرف
والدتها التي كانت في هذه اللحظة تنظر في تليسكوب هارفورده لتتعرف على
أحد الطيور. وأخذ يصفيه لها.

«إن ريشه أبيض وأسود، وذيله طويل يحركه من أعلى إلى أسفل».

«لقد رأيته. رأيته على القور».

وسر هارفورده لسرورها وقال:

«إنك أسرع من ابتنتك. فهي تحتاج إلى وقت أطول منك لتتفني أثر الطيور
واستظرك».

«متصبرين في يوم ما. تحت إرشادي، خيرة مثل».

فردت جوزفين تقول:

«كانت ناناً بطيئة في ملاحظة الأشياء. تفوتها الأشياء الواضحة التي قد تكون
تحت نظرها مباشرة».

تعجبت ماريثا لعدم إخلاص والدتها لها وقالت:

«يا أمي».

ورد هارفورده يقول:

«هل تصغدين أنها إذا رأت طيوراً مألوفة، مثل البومة، واقفة على فرع شجرة
فإنها لا تراها».

وضحكا معاً على حساب كرامتها. فابتعدت عن هارفورده الذي قال
لوالدتها:

«لقد ألتها يا جوزفين... يا ماريثا... يا حلوة لا تقضي بسرعة. لم تقصد
إبلا مكم».

وقبل العشاء مباشرة شاهدت ماريثا من نافذة السلم سيارة صغيرة زرقاء.
تقف أمام المدخل وتدل على أن صاحبيتها أتت. ولم يطل بها التفكير كي تعرف
صاحبيتها. فلما سمعت الضحك الآتي من الممر خلفها غاص قلبها. إن ظنها لم

يجب. لقد كانت الفتاة في غرفة رايان الذي كان يرحب بها.

واجتاح ماريثا موجة عارمة من الغيرة لم تعرفها من قبل. ثم سمعت
صوت بابها يفتح وحدثها يصبح مسموعاً فجرت إلى السلم ونزلت إلى البهو
مسرعة. بينما وصل رايان وصديقه إلى أول الدرج.

ونظرت ماريثا إلى أعلى ونظرت دورين إلى أسفل... كانت دورين تنظر
إليها من عليتها فهي عدوها اللدود وكانت ماريثا قد قابلت دورين في
نورويتش ولكنها اليوم كانت مخلوقة مختلفة تنف شائعة على أول السلم.

ارتكز رايان على درابزين السلم، وأخذ ينظر إلى المرأتين، ولم يبادر أحد بأن
يقوم بواجب التعارف فاستدارت ماريثا وقصدت غرفة الجلوس وهناك أحست
بأنها أصبحت، من خلال خطبتها إلى هارفورده، صاحبة البيت. وكان عليها أن
تبادر بالترحيب بدورين ولا تنتظر من رايان أن يجتمعها.

ولما دخلت الغرفة كانت دورين البائدة بالمبادرة. فاجتازت الغرفة مادة يدها
فقامت ماريثا وسلمت عليها وهي تبسم. ثم قالت دورين وهي تنظر إلى
خاتم ماريثا:

«لقد تقابلنا من قبل. في مكان يفتقر إلى كل هذه الفخامة. ويجب أن أعتك
لمحظيتك إلى البروفيسور تينور. وأرجو لك السعادة. من غير شك سوف تعرضين
كل ما ينتصك يرغد العيش هنا».

وكانت تبسم بكبرياء، فالتهب وجه ماريثا من المعانسي المستترة وراء
كلمات دورين، فهي في نظرها ستتزوج هارفورده لئلا ويمتلكته. ثم قالت
دورين وهي تلتفت إلى رايان:

«الذي يتزوج رايان لا يفعل ذلك لهذا القصر الفخم أو للترف الذي يفدقه
عليه والده».

ودكرت نظرها عليه وهي تقول:

«إنك دائم الرجل يا حبيبي. ولا ممتلكات لك ولا روابط تعوقك ولا تحملها من
هجوم هذه الدنيا».

فأجاب رايان وهو يتبسم ويسكب المشروبات:

«أنا ولدت رجلاً. أطوف في الأدغال وأجتاز الصحارى ولا أترك ورائي شيئاً سوى أثار قدمي على الرمال. من غير امرأة تطاردني وتتعلق بملاسي وتقول إنها محتاج إليّ ولا تدعني أفلت منها».

فشحب وجه مارييتا وردت تقول:

«لا أجد أي امرأة تملك قوة من العفل تريد أن تطارد رجلاً مثلك، لا بقدر المسؤولية ولا بهتم إلا بنفسه».

فضحكت دورين وقالت:

«من دواعي السرور أن تري، يا آنسة نيوبل، أنك سوف تصطدمين بأين زوجك».

نظرت مارييتا إلى رايلان والكلمات تدور في رأسها. ابن... زوجها... وأرتجفت يدها حتى. أن رايلان أخذ الكأس من يدها. وبدأ كأنه يفكر في هذا الوضع إذ ابتسم... ولكن لم تفكر هي من قبل أنه سيكون... ابن زوجها...

٩ - المركب

بعد العشاء جلست جوزفين بجانب هارفورد على الأريكة تقلّب كتب الطيور وتعجب بألوان ريشها الزاهية. وكانت مارييتا تعرف أن والدتها لها فكرة قوية تسجل كآلة التصوير، وكان مقعد رايلان يقارب مقعد دورين، وكما علمت مارييتا كان حديثها يدور حول الجيولوجيا، ولكن رايلان كان يجلس النظر إلى مارييتا وهي جالسة تلتب صفحات المجلة التي أعارها لها هارفورد، وتحوي مقالاً كتبه بنفسه عن طيور شرق أنغليا. فقرأت المسال ولكنها لم تهتم به.

ثم أخذت ترأب والدتها و هارفورد، فوجدت أن والدتها قد خطت خطوات واسعة في توطيد العلاقة بينها وبين خطيبها. وكانت والدتها تظن أنه بعد زواج ابنتها سيصبحون جميعاً عائلة واحدة سعيدة، بما فيهم الابن ولذلك اظهرت الودّة نحو صديقة الابن فهل ظنت أنه جالس بجانب زوجته المستقلة؟

ولاحظت مارييتا أن هارفورد تغير تغيراً كاملاً خلال الأسابيع التي قضتها معهم. فذهبت صورة ذلك الأستاذ بملاسه العتيقة، وأصبحت لا تعرف الرجل الذي كان يطوف بالمعمل شارده ذهن ويتجول ويتمهل بجانبها ليوجه إليها النصيحة.

نظر إليها، فلما رآها جالسة وحيدة، أشار إليها أن تجلس بجانبه، ثم لفّ ذراعه حول وسطها وشعرت بنبلة سريعة على رأسها فنظرت إليه بعينين لامعتين، وشعرت بالسعادة لمحبهته لها.

ولم يلفت نظر جوزفين شيء مما يدور حولها، وأخذت تتحدث عن صور الطيور النادرة التي توجد في الكتاب، وبذلك تحول اهتمام هارفورد عن مارييتا. ولكن من الذي يمكنه أن يحسب ذراع هارفورد التي تطوق وسطها؟ ومن الذي يمكنه أن يطلع خاتمه من أصبعها؟ انها لن تخضع ثانية لسحر رايان فقد ذابت اللؤلؤ على يديه وشعرت أنها الآن محبسة ضد سحره، فلن تتألم معها بما منه ثم أدار رايان اسطوانة راقصة وفتح ذراعيه لدورين وأخذ يرقصان في أرجاء الغرفة.

وكان ينظر الى دورين ويتكلمان أحياناً وبضحكان كثيراً، فالتفت مارييتا من هارفورد أكثر، ثم توقفت الموسيقى ولكنها أعادها ثانية واستمرت في الرقص. وعندما أبدت جوزفين رغبته في شرب القهوة هب هارفورد بتنادي السيدة فيسك طالباً احضارها، وشعرت مارييتا بهوة بينها وبين والدتها، ولم تحاول أن تقترب منها ولم تشجعها جوزفين على ذلك فنالت مارييتا ولم تفهم ماذا طرأ على والدتها... وقجاة وجدت مارييتا رايان واقفاً أمامها يدعوها الى الرقص، شعرت بالخوف لأنها لا تريد أن تلمسه وحاولت أن تتلافاه، ولكنه قبض على رسغها وأوقفها فقالت دورين: «دعي رايان يراقصك فهو يحب التغيير وإذا تزوج يبلى بجانب زوجته لفترة ثم يتركها للبحث عن غيرها».

قال رايان وهو يضم مارييتا الى صدره:

«نعم سأتركها وما زالت قبلات شهر العسل على شفتي»

قالت مارييتا:

«لا أريد الرقص معك فأنت لم تستأذني».

«الاستئذان ليس من طبعي، بل عليّ أن أخذ ما أريد ثم يكون جزائي ذراعين تطوقان شفتي».

«انك هجسي وقاس».

«قلت هذا من قبل...»

«اذن دعني أذهب».

«لا».

ثم رأت هارفورد راجعاً الى الغرفة وعلى وجهه تعبير من عدم الرضى ثم جلس بجوار جوزفين وقال:

«عندما أتزوج يجب أن تأتي للإقامة معنا حتى نذهب جميعاً لمراقبة الطيور».

ولما فرغ رايان من الرقص التحن بسخريّة لمارييتا ثم عاد الى دورين التي رحبت به.

وفجأة استدعى هارفورد الى الجامعة، وسأل مارييتا ان كانت تريد الذهاب معه، ولكنها اعتذرت لأن رجوعها الى عملها كخطيبة لرئيس القسم يجعلها تشعر بالحجل، ولن تحب أن تواجه زملاء هارفورد والخبراء وكبار رجال التعليم. كما أنها في قرارة نفسها لم تتقبل فكرة خطوبتها الى الرجل الذي كان رئيساً لها.

وذهب هارفورد في الصباح وهو يؤكد لها أنه لن يمضي الليل بعيداً عنها حتى لو عاد في ساعة متأخرة، اذ لن يؤخره شيء عن فتاة أحلامه.

وفي منتصف النهار كانت مارييتا في غرفة والدتها تجرّب احدى بلوزات الأم عندما سمعت نقرأ على الباب، فدعت القادم للدخول ظناً أنها والدتها، ولكنه كان رايان فصاحت قائلة:

«لا، لا يمكنك الدخول، لقد ظننت أنك...»

«والذي... الذي كنت سترحين به بذراعيك مفتوحتين فهو خطيبك!»

«لا تكن سخيّة، فوالدك سافر وأنا أجرب بعض الملابس...»

«استمري، فمَنظر النساء وهن يملعن ثوباً ويلبسن آخر لا يجلبني...»

«هل رأيت الكثير منهن؟»

فضحك وقال:

«كثيراً جداً».

«ماذا تريد؟»

«أولاً أن أعطيك الشال...»

«وإذا لم أكن أريده ثانية»

«كفي عن عشك معي يا حبيبي. والا نالك أكثر مما ظننت. أو ألقه حول عنقك ثانية كما فعلت في المرة السابقة»

وكان ذلك في الليلة التي اعتزقت له فيها بحبها. وكانت لحظة هامة بالنسبة إليه لأنها تعتبر انتصاراً له.

قالت:

«لماذا أعدت الشال الي؟»

«ربما نزوة أو ترضية، فيجب أن يسود بيننا التفاهم إذ سرعان ما ستصبحين فرداً من عائلة ثيودور».

«بلى من الأجدر أن تدعوها هدنة أو راحة من الحرب».

«أذن، هدنة. واستعدي لأتنا ستخرج».

«الى أين؟»

«هل تذكرين المركب الذي أخبرتك عنه... الجو منعش والوقت مناسب لرؤيته».

«وهل تترك والدتي وحدها هناك»

«ستأخذها الى نورفولك لتري معالم المدينة وتعيوب المحلات».

«وماذا عن دورين؟»

«ذهبت وتركنتي».

«ولكن لماذا كنت اعتقد...»

«اكتشفت أنها تضع هدفاً لها وهو الزواج. وهذا هو عيب النساء. فيعد بضغ قبليات

يتخيلن أن قسمة الزواج أصبحت قريبة منهن».

«انك حقير»

فضحك عالياً وقال:

«وطيفتي تحتم علي العيش في أماكن مقفرة. وأنا لست راضياً. فحين أحصل على

اجازتي أوازن بين المعيشتين. ولذلك تعودت على النساء اللواتي لا يشكين

الفراق ويقلن ألا يريتنى ثانية».

«كما تقول، خذ الحب واذهب».

«نعم».

«لم أفطن إلا الآن كم أكرهك».

قال:

«سأعطيك عشر دقائق حتى تستعدي».

ثم غادر الغرفة وخرج.

مرّ في طريقها عبر قرى وحقول، ومنازل قديمة، تحمل آثار الزمن السحيق. وتناولوا غذاءها في مطعم قديم يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر، وفي الطريق

الى البحر سألتها مارييتا:

«وأين يلف المركب؟»

«بالقرب من هورنغ وعادة يذهب الذين يقيمون في المركب الى المحلات القريبة قبل أن يتوجهوا الى مراكبهم وبما أننا نقيم هناك فلن نمرج على هذه المحلات».

وكان المركب صغيراً فيه حجرتان للنوم، وطاف بها في أرجائه ثم أشار الى

المطبخ وهو يقول:

«ههنا تجد الحمام وخزانين الحائط وفي غرفة النوم أرائك للنوم. وتستعمل للجلوس

نهاراً. وتوجد غرفة أخرى للنوم فيها كل وسائل الراحة الحديثة. وهي مثالية

لقضاء شهر العسل، فهل تظنين أن والدي سيأتي بك الى هنا».

اضطربت لهذا الحائط، هل تبقى وحيدة مع هارغورد ليلاً ونهاراً.

«والآن ما رأيك في المركب؟»

«أنه رائع... هل تبقى فيه أم نبحر للترعة؟»

«سنذهب للترعة».

ثم أدار للحرك وفك الحبل وقاده الى وسط النهر بمهارة. وسارا بين مراكب

شراعية وقوارب تجديف ولشاش بخارية، ورأت فتاتى يحدائق ممتدة الى النهر

وشمسيات مغططة تظلل الموائد.

وكان رايان يقود المركب بخبرة وحان وقت الغذاء فنظر اليها فرأى شعرها

بطير ورادها مع الهواء وقد ارتسست نظرة رضى على وجهها فقال:

«هل تشعرين بالجوع؟ إن كل شيء معد... أمسكي بعجلة القيادة».

«لا... لا يمكنني ذلك».

«ألا تتودين السيارة؟»

فلومأت برأسها فقال:

«وانن يمكنك قيادة السفينة. حتى محلي إلى أن أتى بالطعام».

لقدعت مارينا على عجلة القيادة، ووضعت يديها عليها فقال لها:

«أمسكي العجلة بحزم، وحاولي ألا تصطدمي بشيء».

وتركها تلوح المركب وحدها فشرعت بالتعامل مع هذه التجربة، وكان المركب يسوق

الماء ويسير بين مجموعات البط التي السباحة في النهر».

ولف حلقها وقال:

«هذان يجمعان... ربما كانا ذكراً وأنثى وهما طيران جميلان».

فجفلت مارينا وقالت:

«أرجو أن تأخذ عجلة القيادة».

«ولكنك لمحتين قيادة السفن».

«أنا خائفة أن أصطدم بالشاطئ».

عانتها... لكنها مضت تقول:

«أشعر بجوع شديد».

فأراحها من القيادة وقال:

«سأجد مكاناً تربط المركب فيه وتناول الطعام».

وأدار المركب ناحية الشاطئ، ولفز على التمر وربطه في جذع شجرة.

وسألته مارينا:

«كيف حصلت على هذا الطعام؟ هل هي السيدة فيسك؟»

«لا أنا اتصلت بأحد أصحاب المحلات المجاورة لمرسى السفن فجاء بالطعام

ووضعه في الثلاجة».

وأشار إلى وعاءين مملوءين خلط الشاي والنهدة:

«ههنا ما لختارين من الشاي أو القهوة والسكر والحليب المجفف».

«لم ينس أي شيء. هل أبدأ في الطعام؟»

«لا تستلني في ذلك فأنت شريكة في البيت لذا أوشكت أن تصبني عروس

أبي».

وتغير وجهه فذهبت ابتسامته وحدثت نظرة عينية.

وبعد الغداء استمرا في الزفة، وكانا يبعدان عن المنزل مسافة طويلة تنافر

ساعتين في السيارة ابتداء من البحر.

ثم قال لها وهو يشير إلى أحد الطيور:

«دعيني أعرف كم أقدت من تعاليم والذي. هل تعرفين هذا الطير؟»

فجاءت لتعرفه وكانت على وشك الاعتراف عندما صاحبت لثقة:

«أراه! ولم يكن والدك هو الذي أشار لي عنه بل أنت. وكان ذلك في بركلان».

هل تذكر؟»

«نعم أذكر ذلك اليوم الجميل. ثم انظري... هذا طير اسمه ملك الصيادين».

«نعم وهو جميل».

ثم قالت له بخجل:

«أناك تعلمني أشياء أكثر مما يعلمني والدك».

وساء بينها صمت كانت تنخلقه أصوات الناس على الشاطئ، وضحكاتهم

وكانت الحفلات ممتدة ترعى فيها اللاتية، ثم قال وما زالت تراهه تطوق خصرها

«البعض يقولون أن هذه المنطقة هي صورة مصغرة لهولندا. كما أن طواحين

الغواء تعشق هذا التسم».

ثم لاحظت أنه يرسو على منطقة قليلة من الشاطئ، فسألته:

«أين نذهب الآن؟»

«لتسريح وتأخذ حمام شمس».

«أليس من الأجبر أن نرجع؟»

«ولترك الشمس الدافئة؟ ومع ذلك لم نأكل بعد وجبة العشاء. فصاحب التحل

أرسل لنا طعاماً يمكننا أسيروا».

ثم نظرت حولها على الشاطئ، وقالت:

«لا يوجد شيء تستريح فوقه»
 فلما كان منه إلا أن أحضر بطانية من المركب قنعا عليها جنباً إلى جنب، وكان
 قربه منها يثيرها فقالت له:
 «أين اكتسبت لون سرة الشمس؟ هل اكتسبتها من محل عملك في الخارج؟»
 «لا، أنا راجع لتوي من شمال ألاسكا ولكنني قضيت فترة عمل في ماليزيا
 قبل ذلك، حيث لوحنتي الشمس بلونها».
 «لا بد أن اختلاف الحرارة من بلد إلى آخر قد ضايقك»
 «كان صدمة لي، احتجت إلى أسابيع لأتأقلم على البرودة في ألاسكا وكان
 الهواء يبرمج طول الوقت وكنت أرثدي طبقات من الملابس وقبعة من الصوف
 وفقاراً وحذاءً طويلاً وسترة لها ياقة من الفرو ونظارة تقيني وهج الثلج».
 وضحكت وقالت:
 «وهل تركت لحيتك تنمو؟»
 «نعم كانت حلاقتها متعبة، ثم لتحميني من البرد».
 «وهل كنت تشبه والدك بلحيتك؟»
 «لا، فنحن مختلفان في الشبه، فهو أسمر وأنا أبيض إلى اللون الفاتح».
 «هل تشبه والدك؟»
 «ربما...»
 ثم صمت فترة وعاد يقول مغبراً الموضوع:
 «قسوة الجو تخلق مشاكل لاستخراج البترول مثل كيفية استخراجه ونقله إلى
 المناطق المأهولة من العالم».
 «ألا يمكن استخدام السفن؟»
 «البحار تتجدد لمدة طويلة من السنة».
 «كنت أظن أن الطريقة المثلى هي استخدام الأنابيب».
 «نعم، هذا ممكن فوق اليابسة».
 «كيف تعرف مكان البترول لاستخراجه؟»
 «ندرس أولاً صوراً من الجو وتكوين الصخور الموجودة على سطح الأرض الأقدام

ونستخدم الآلات لمعرفة التغيرات في مغناطيسية الأرض وقوة جاذبيتها، أو
 نستخدم جهاز الزلازل لاجتثاث زلازل صناعي يخرج أمواجاً تسير في اتجاهات
 مختلفة بقوى متفاوتة بين الصخور. وعندما تعثر على تكوين الصخور المطلوب
 نقوم بتجارب عليها. وعندي بعض منها في مكتبي».
 نهضت وأخذت تنفض ملابسها وهي تقول:
 «يجب أن أذهب إلى المركب فقد حان وقت رجوعنا يا رايان»
 تبعها إلى المركب وهو ينظف البطانية، ولما وصلا ارتدى رايان قميصه
 وراحا يتناولان طعامهما.
 «استمتعت بيومي يا رايان... وأشكرك لذلك»
 «أنا من دواعي سروري أن تكوني معي»
 ثم أدار المركب وأخذ طريق العودة على مهل. وكانت الشمس تميل إلى
 الغروب، وتنعكس أشعتها على المياه المادنة. وكانت الزوارق قد عادت ما عدا
 مركب أو اثنين.
 وتنهت ماريانا إلى أنها في مياه غريبة عنها، فأخبرت رايان ولكنه اكتفى
 بالضحك. وبعد فترة وأنه ينجح إلى شاطئه في بقعة متوازية تحيطها الأشجار
 الكثيفة.
 فارتابت ماريانا وسألته:
 «أين نذهب الآن؟»
 «سنضي الليل هنا»
 حاولت أن تأخذ عجلة القيادة منه، ولكنه ألقاها بعنف جانباً فسقطت فوق
 حلقة من الحبال.
 «لا يمكن ذلك فوالدتي ستقلق لغيبنا ولا حق لك في عمل ذلك»
 «لا حسني، بل سيقى هنا»
 فهست تقول:
 «أرجوك يا رايان عدي بي إلى المنزل»
 وكان المساء قد ساد والهواء أصبح بارداً، فهل نقضي معه طول الليل، وهي لا

حول لها ولا قوة.

«وهل أدع هذه الفرصة الذهبية؟»

«وهل هذه إحدى حيلك كي تبعدني عن والدك؟»

«أنت وأنا هنا فلما لا ننتهز الفرصة؟»

«ليست لك أي مبادىء... وأنت إنسان قاسٍ».

ثم قفزت من المركب وأخذت تجري نحو الأشجار وتخوض في نبات العليق الشائكة. ولكنه لحق بها وأمسكها وقال:

«ستبقي معي حتى إذا اضطررت أن أقيدك بالحبال. وإذا حاولت الفرار مرة أخرى فست مسؤلاً عما يحدث».

وارتمت على إحدى الأرائك ولكنه جلس بجانبها ولما ابتعدت عنه قال:

«اخضعي لي يا حبيبتي. وأعطني ما أريد وما تريد، ولن تندمي على ذلك أبداً».

أخذت تبكي فقال لها:

«سأريك كيف يكون حب الشباب فأنا الربيع لا الحريف كوالدي».

ثم عانقها فشعرت أنها أصبحت جزءاً منه وحاولت أن تقاومه فلم تفلح. ثم فكرت أن تستعمل سلاح الكلام. فقالت:

«لن تتأني ثم تتركني كما ذكرت لي. ولن أطوق عنك شاكراً فأنا لست من الفتيات اللواتي يجيبن رجلاً ثم يشاهدنه يذهب وهو لا يبدي أي بادرة لشعوره. أنا أحب والدك يا رايان وهو يثق بي. ولن أجعله بأسف لكل هذه الثقة. كانت تقول هذه الكلمات دفاعاً عن نفسها. فرد قائلاً:

«حسناً. أنت الآن في أمان ولن أمسك فقد أصبحت والدتي».

والدته... نعم فيزوجها من والد رايان تصبح زوجة أبيه، ومهما حاولت أن تبعد هذه الكلمات عنها فقد أخذت تدور في ذهنها.

وظل صامتاً طوال رحلة العودة في الصباح الباكر. وقد أمضت مارييتا ليلاً قللاً يتخلله بكائها. أما رايان فقد نام نوماً عميقاً. وكان تنفسه منتظماً ولا

بذ أنه كان متعباً، أثناء عمله، أن ينام في أماكن متعبة مثل نوم المركب.

وكانت رائحة الزهور جميلة والطيور حولها تطير وتحلق في الجو. وكانت مارييتا تشعر بالنعاسة وتأسف لأنها لا تتمتع بالجمال المحيط بها.

وظل طوال رحلة العودة في السيارة صامتاً وعندما اقتربت الرحلة من نهايتها قالت مارييتا:

«لا بد أن أجد والدتي فور رجوعي وأخبرها بما حدث».

«ولكنها تعرف مكانك».

«والدتي تعرف؟ هل أخبرتها؟ هل تأمرقا كي أبقي معك طوال الليل؟»

وبدأت تسأل نفسها:

هل تأمرت جوزفين معه فعلاً؟ ولكن لماذا؟ ولما لا؟ فهذا يتشاركان في الرأي بأن مارييتا يجب أن تترك هارفورد ولا تتزوج. وعند وصولها تركت

مارييتا السيارة قبل أن يتمكن رايان من إيقافها. ثم قالت لنفسها أنها يجب أن تخبر هارفورد. لحق بها رايان وأمسك بيدها وقال:

«تعالى لأريك شيئاً من حلقك أن تريه».

وفي البهو التقيا بجوزفين فقالت مارييتا:

«كيف تفعلين بي هذا؟»

لكنه قادها إلى غرفة والده التي لم ترها من قبل. وفتح الباب ودفعها داخل الغرفة. فلم يجد أباه فيها. بل تسمرت في وقتها إذ رأت شيئاً لا يصدق عقل.

شاهدت في كل ركن من الغرفة وفي كل شبر منها صورة فوتوغرافية لشابهة تشبهها إلى حد كبير... فالعينان لوزيتان مثلها تماماً والشمس مكشنة والمهاجبان

مقرسان وعظام الوجنتين العاليتين مثلها بالضبط. ولكن الذي فاق كل شيء في الشبه هو لون شعرها البني المائل إلى الذهبي... إذن غرايان يشبه والدته.

وكانت غرفة هارفورد مكرماً لزوجته الراحلة التي لم ينسها أبداً. وكان هذا الشعور يفسر أشياء كثيرة. فالكلمات الغريبة التي كان يقولها بأنه يعرفها منذ

سنوات طويلة وأنه انتظرها لترجع إليه وعن الثوب الأصفر وعن الطريقة التي أمر بها رايان ألا يقترب منها...

امتلاً قلبها بالشفقة عليه. ثم استدارت على صوت هارفورد وقد تطاير
شرر الغضب من عينيه. بما أخافها.
«اذن، أمضيت الليل مع ولدي وأصبحت ملكاً له؟»
تحركت نحوه ولكنه تراجع، فقالت:
«هذا ليس صحيحاً يا هارفورد. نعم أمضينا الليل معاً في المركب ولكن كل
واحد كان بمفرده».
«أنا لا أسدقك. فأني امرأة تضي الليل معه لا تبعد عن ذراعيه... انتي أعرف
ولدي جيداً».

« هارفورد، أين الثقة؟ »

« تتكلمين عن الثقة؟ أنا لا أتق قبك بعد الآن ».

وكان يتكلم ولا يدري ماذا يقول وكأنه يكلم شخصاً آخر... ربما كان يكلم
المرأة التي عاشت نقية في خاطره لسنين طويلة
الأحلام ذهبت إلى غير رجعة. الأحلام التي وراء الأفق ووراء هذه الأحلام
جاءت الخليفة.

١٠ - أقدام على الرمال...

انتهى كل شيء.. وأصبحت ماريتا وحيدة وأطلت من نافذة غرفة الاستقبال
في منزلها وهي تتساءل: متى تعود والدتها؟ أصبح ميسو الأقق وهارفورد
ورايان من الماضي وانتهى فصل من كتاب حياتها. وأصبحت كذلك بدون
عمل لاستقلالها حسب رغبة هارفورد عندما خطبها.
ولم يشعر أحد برحيلها، فبعدما هربت من وجه هارفورد الغاضب كان كل
واحد منهم في غرفته. وبقيت هي وحيدة، كأنها نفيت إلى جزيرة بعيدة.
ودق جرس التليفون كما دق مرات كثيرة ذلك الصباح واليوم السابق منذ
وصولها، ولكنها تجاهلته فلم ترد... معها كان الطالب... هارفورد أو والدتها أو
رايان - فلن ترد عليه إذ ليس لديها شيء تقوله لأي منهم.
ولم تأخذ إلا معطفها ومضت إلى البلدة واستقلت الأتوبيس إلى
نورويتش ثم أول فطار إلى منزلها وتركزت والدتها تجمع الحطام.
ولكن مرّ يومان ولم تحضر والدتها. حتى المكالمات الهاتفية كنت، وكان صوت
الهاتف بعد رنين مستمرّ يؤثر على أعصابها وأكثر مما فعل الرنين الدائم.
وفي الليلة الثالثة دق جرس التليفون في الفجر، وكان رأسها يدور من تأثير
النوم ومقاومتها تنحدر أمام ضعفها. نزلت ماريتا إلى الصالة وردت:
« ماريتا! حبيبتي... حاولت كثيراً الاتصال بك. هل أنت بخير؟ »
«نعم. وشكراً يا أمي...»
«أنا قلقة عليك يا عزيزتي. لماذا لم تردني على التليفون؟ يا حبيبتي رايان يود

أن يكلمك.

وضعت مارييتا الساعة ورجعت الى سريرها. لكنها لم تسم بل رقدت مشيطة وانتظرت أن يدي جرس التليفون ثانية. ولكنه ظل صامتا حتى بعد طلوع الشمس. ولما خاب أملها راحت في سبات عميق. أيقظها منه زنين جرس الباب.

ولما نظرت في ساعتها وجدت أن النهار انتصف فالتفتت الروب وهبطت درجات السلم. لا بد أن تكون والدتها جاءت أخيراً ولكنها تذكرت وهي تفتح الباب أن والدتها معها مفتاح.

ورأت رايان وقد وضع كتفه في الباب وظل يدفعه ثم أغلقه ووقف ينظر إليها وهو عائد الذراعين على صدره. وتذكرت أن ملابسها غير لائقة وشعرها مشعث.

وهس يقول:

«تماماً كما توقعت. وجه شاحب وظلال تحيط بالعينين ونحول نتيجة لفقدان الشهية... هل فسح الخطبة أثر عليك لدرجة المرض؟ هل تريدان العودة الى أبي؟» قالت بهدوء:

«أذهب وإلا استدعيت البوليس».

وقف بينها وبين التليفون وقال:

«إنك تعرفين كيف أسارع النساء وأغلب عليهن؟»

وقادته الى غرفة الجلوس وظنت أنه غافل عنها فحاولت الوصول الى التليفون. ولكنه كان منتبهاً الى هذه الحركة فاستدار وأمسك بها وشدها الى صدره بشدة. وأبقاها بقربه. لكنها قلصت منه قسماً على ذراعيها وقال لها وهو ينظر إليها: «كوني لطيفة، فإنك عزلاء».

وكان قميص نومها قصيراً ذا صدر مفتوح فقالت له:

«سأكون لطيفة يا رايان إذا تركتني أردي ملابسى. وأعدك ألا أهرب. تركها فأخذت تدلك ذراعيها حيث أمسك بها ثم قال:

«احتفظي وعديك لى وإلا سأصرف بما لا يلائم سمعتى... ولن أرحمك هل هذا

مفهوم؟»

هزت رأسها وارترقت الدرج خطوة خطوة. ولما وصلت الى نهاية السلم كان قلبها يخفق. وكان عليها أن تعمل ما في وسعها لتجعله يغادر المنزل. وارتردت بنظرة وبلوزة مضلعة ومشطت شعرها ووضعت بعض المساحيق على وجهها ثم تساءلت هل تجد الحصة والشجاعة لتجعله يذهب؟

ولما نزلت وجدته ينتظر في الصالة وتبعها الى غرفة الاستقبال ولا بد أنه لاحظ ظروف معيشتها والفرق بينها وبين مبنى الألق. ولكنه لم يبد إشارة تدل على ذلك.

أشارت اليه أن يجلس لكنه ظل واقفاً ثم قال:

«والدي يريد رؤيتك. وزد أن يفسر لك كل شيء. ويفضل أن يكون التفسير شفهاً وليس مكتوباً».

«أدرك كل شيء. ولا أحتاج الى تفسير».

«حسناً إذا لم تسمعها منه فاسمعها منى. ولتبدأ من البداية. والداي تزوجا في صدر شبليهما إذ لم يكن عمر كل منهما يتعدى التاسعة عشرة. وكان أبي على علم بأن والدتي تعاني من مرض القلب وقد حذرهما أحد الأطباء من الانجاب لكنها لم تأبه به وأقنعت والدي بإنجاب طفل كانت في أشد الشوق اليه. ثم توفيت بعد ساعات من مولدي عرفت خلالها أنها انجبت ولداً. وهست الى هارفورد أن يحميه رايان هارفورد تيودور.

ونظر من النافذة ثم قال:

«كانت تعرف أنها لن تعيش. ولكنها أخبرت والدي في النهاية أنها تأسف للزواج. فقد كانا متحابين. وبقي والدي مقيماً على حبها بعد وفاتها حتى أنه حوّل غرفته الى محراب يقدس فيه ذكراها. وأقسم ألا ينساها وألا يتزوج أبداً».

ثم تقدم رايان ووقف أمامها وأضاف:

«ال أن قابلك فأراك تشبهينها. وبالرغم من أنه عالم يفكر باتزان ويعقله كان يجزم بأنها رجعت كي تعيش في شخصك».

نظرت اليه بعينين واسعتين وقالت:

«كان متعوباً أن يأتي ويقف بجاني ويراقبني وأنا أصنع المعدات والأدوات استعداداً للتجارب. ولم أفهم السبب».

«والآن؟ هل فهمت السبب؟ وهل فهمت سبب دعوته ولماذا كان يعانقك ويلاطفك؟»

«لم يلمسني كما تظن حتى ولا بعد الخطوبة. بل كان يعاملني بكل احترام».

«هذا ما أعنيه. لقد اعتبرك زوجته وأنت لست كذلك».

«ولماذا تتعاركان دائماً؟»

«كان يعاقبني لأتني السبب في وفاة والدتي. وكان عليّ حمل الوزر طول حياتي.

وفي الحقيقة كان يلقي جزءاً من الذنب على نفسه».

ثم قال:

«لقد أيقنتك معي طول الليل في المركب. وكان ذلك يعلم والدتك لأنني أعرف أنه سيظن بنا الظنون. وأنتي كنت أمل أن يكون ذلك كافياً ليثوب إلى رشده».

«وأدخلتك غرفته كي ترجعي أنت أيضاً إلى عقلك وإلى الحقيقة».

لم يبق شيء بعد ذلك. وتركت ماريثا لرايان الخطوة التالية فقال:

«كلمت والدتك مرة بالهاتفون. واشتركتنا في حديث طويل عنكيا واكتشفت

معارضتها للخطبة فشجعته على قبول الدعوة بأن تأتي إلى منى الأفق كي

تصحح بفسخ الخطبة».

«وهل هذا السبب الذي ذهبت لأجله إلى المحطة لانتظارها؟ وكنت أتساءل كيف

عرفتها».

«إنها مثلك وتهديك سلامها. ويمكنني أن أقول لك إنها تتقارب مع والدي

بسرعة. وقد أقتنعت أن يجمع الصور الفوتوغرافية من غرفته وهي تأمل أن يمضي

في الحياة، في يوم قريب. مع شريكة جديدة».

ثم ابتسم وقال:

«وفي أي حال هي تشبهك كثيراً وبذلك تشبه والدتي أيضاً. ولكنها تكبرها

كثيراً».

أمها ومارفورد: الفكرة أدهشتها في البداية ثم رآقت لها كثيراً.

ثم قال:

«لا بد أن تعرفي كذلك أن التوتر الذي يقوم بيني وبين والدي خف كثيراً».

«وكان أميناً في قوله أنه أبهى عاطفة الأبوة نحوي تحت يد من حديد وأصبحتنا

الآن صديقين... علاوة على أب وابنه».

ثم سألت ماريثا:

«هل هذا كل ما هناك؟»

«وهل عندك ما تقولينه؟»

سألتها عما يقصده فرد بقوله:

«في ليلة جميلة سمعت منك عبارة، وما زلت أتساءل إذا كانت صحيحة».

«بأنني أحبك؟ قلتها تحت التهديد... وقد سمعتك تقول لوالدك إنك عملت ما في

وسعك كي تجعلني أحبك. حتى يرجع إلى عقله. فما فائدة هذه العبارة الآن؟ وإني

أعرف رأيك في النساء فلا تريد رويط ولا أطفال تعوق طريقك. وأنت تعرف

أيضاً رأيي فيك. أخبرتك بذلك مرات عديدة».

«إذاً هذا كل شيء».

ثم وقفا ينظران إلى بعضهما البعض. هو بنظرة لا مبالاة وبرود وهي غير

مصدقة - أنها لن تراه ثانية بعد أن طردته من حياتها... ثم قالت بجمود:

«الوداع».

«الوداع يا ماريثا».

ومال عليها بعانقها ولكن هذه المرة كانت عاطفته قد امتزجت بالخشان

فخضعت لعاطفته الجديدة... لفرقة وحنانه بدلاً من قسوته السابقة عليها.

ونظرت إليه وهو يتركها بعدما جعلها تتجاوب معه وترد قبالاته ثم تركها والتجه

نحو الباب... فامتألت عينها بالدموع وقالت له:

«رايان - خذ الحب ثم اتركه واهب. هل تؤمن بكل كلمة من هذه العبارة؟»

«نعم أؤمن بذلك. ولكن المعنى يختلف فقد أصبحت العبارة الآن لم أتمكن

من أخذ الحب ولذلك يجب أن أذهب... الوداع يا ماريثا».

ثم اتجه نحو الباب ثانية. ولكنها هرعت وراءه وهست تقول:

«لا تذهب. قل لي معنى هذه العبارة أرجوك».

«أليس من الأفضل أن تقول ماذا تعين؟»

ولم يتو لسانها على الكلام ثم قال لها:

«إذا لم تكوني قادرة على الكلام أخبريني بالفعل».

فجرت إليه وطوقت خصره بذراعيها وألقت برأسها على صدره فقال لها هامساً:

«انظري إلي يا حبيبتي...»

ولما نظرت إليه قال:

«أحببتك من النظرة الأولى، وعرفت لماذا اختارك والدي. فأنشبه الذي يجمعك

بوالدتي لا يصدق عقل. وقد عرفت من البداية خطأ والدي وذلك لصغر سنك،

وكنت أعلم باحتفاظه بصور والدتي في غرفته وأعرف أنه يتخيل أن زوجته

الحبيبة قد عادت إليه وأنه يحاول أن يمزج شخصيتك بشخصيتها، وكانت

المشكلة هي كيف نجعله يعرف خطأه ونجعلك تعرفين خطأك».

ابتعدت عنه قليلاً وقالت:

«ولماذا تنعازكان؟ ولماذا يبدو أنه يكرهك؟»

«أذكرني أنه تألم لمدة اثنين وثلاثين عاماً. كان يعاني فيها الشوق لحبه المفقود

ولما كبرت قليلاً لم يكن عادلاً وكان يلومني لموت والدتي وأخيراً أعادته سعادتني

بك».

ولكنها كانت تريد المزيد من التأكيد فقالت:

«ولكن يا رايان... لقد عرفت دورين وفصلتها علي».

«عرفتها بهدف أن أثير غيرتك، فهل نجحت في ذلك؟»

«لقد ذهبت الأمرين».

«انتني سعيد بذلك، وأسف يا حبيبتي. لكنني أحذرك فلن أكون العاشق الرقيق

دائماً. ولكن كنت أود أن أحارب والدي بكل الأسلحة التي أملكها... بقوتني

وشبابي... حتى أنال المرأة الوحيدة التي أحببت حباً صادقاً، والنسي أريد أن

أفقد زوجها لي وأن تبقى بجانبني في كل دقيقة من حياتي. والآن يا حبيبتي هل

عرفت كم أحببك؟ وكما ألتني الصفات النسي أطلقتها علي؟ ولذا أردت، هل

أجبرتكم، أن تعترف لي في تلك الليلة بأنك تحببتي».

وأجعلكم ترجعين أبشراً إلى عقلك باستحالة الزواج مني،

فقلت له وهي في حيرة:

«هل تنوي الزواج بي؟»

فضحك عالياً وقال:

«هل أصر على الزواج بك. وستضعين خاتمي في أصبعك وتحملين أطفالي، أما عن

حريتي فتصيح عظيمة إذا كانت مشتركة بيننا. وعندما أجوب الصحاري في

المستقبل ستترك وراةنا أترين لأقدامنا على الرمال».

وردة قايين

شبكة إيلس الثقافية